الفصل الثالث
فقهاء المالكية والحياة السياسية في بلاد السودان الغربي

١ـ فقهاء المالكية والعرش

أ ـ في دولة مالي .

ب ـ في دولة صُنغى .

٢ـ الخطط والولايات التي تولاها فقهاء مالكية السودان الغربي .

أ ـ الكتابة .

ب ـ القضاء و الفتيا .

ج ـ الخطابة والإمامة.

obeikandl.com

obeikandl.com

نظراً للمكانة التي احتلها فقهاء المالكية في دولتي مالي وصُنغى بالإضافة إلى الوضع الاجتماعي والنفوذ والتأثير الذي حظوا به بين العامة والخاصة ، فقد ارتبطوا بعلاقات مع السلطة الحاكمة كانت في أغلبها علاقات طيبة إلا أنها كانت تسوء بين الطرفين في أحياناً أخري.

فقد لعب فقهاء المالكية في السودان الغربي أدواراً مختلفة في جميع مناحي الدولة الثقافية والاجتماعية والسياسية ، حيث شغل البعض منهم وظائف عليا وخططا دينية كبرى، من قضاءٍ ، وإمامةٍ ، وخطابةٍ ، وكتابةٍ ، جعلتهم يساهمون بشكل كبيرٍ ومباشرٍ في الجهاز الإدارى والسياسي للدولة .

فالارتباط بين الفقهاء والسلطة أصبح قاعدة سياسية تتشكل من عناصر تتمحور حول علو صفة العالم ووظائفه ، فترفعه عن ماهو طبيعي مادي ، وتجعله أشد حرصا على القيام مقام الناصح المرشد الامين ، لأن الخطأ مرتبط بما هو عادى،فالمُلك عطاء وليس اكتساباً، والسلطان مملوك قبل أن يكون مالكاً أو ملكاً[1] .

ولذلك ارتكز مجتمع السودان الغربي وخاصة في المرحلة المبكرة من انتشار الإسلام على الفقهاء في العملية التعليمية ، بالإضافة إلي النظام السياسي والإداري ، كما كان الحال في دولة غانة التي اعتمدت عليهم في الجهاز الإداري للدولة ، ولكن نما هذا التأثير للفقهاء مع نمو التأثير الإسلامي في دولة مالي منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وفى دولةُ صُنغى منذ بدايات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، عندما سعى حكام هذه البلاد إلى التعريف بأنفسهم

(١) المغيلى : رسالة في أمور السلطنة ، مجله كليه الآداب ، فاس ، العدد الخامس ، ١٩٨٩ ، ص٩٨.

كحكام مسلمين، لدرجة جعلتهم يستشيرون هؤلاء الفقهاء ، ومنذ ذلك الوقت تطورت العلاقة بين الفقهاء والحكام[١] .

وهكذا كانت العلاقة بين الفقهاء والسلطة الحاكمة قد بدأت في الظهور منذ قيام دولة غانة بعد أن قام حكامها باستقطاب بعض المسلمين للاستفادة من تجاربهم وممارستهم فأعان هؤلاء الفقهاء والتجار والكتاب والمستشارون المسلمون ملكها على تسيير أمور دولته[٢] وقد استمر هذا الآمر في دولتي مالي وصُنغي .

١ـ فقهاء المالكية والعرش :

أـ فقهاء المالكية والعرش في دولة مالي :

كان بلاط دولة مالي الإسلامية مليئاً بالفقهاء والعلماء ، وكان أكثرهم من الشمال الإفريقي ، وقد أسندت إليهم معظم الخطط الدينية . وقد حظي هؤلاء العلماء الفقهاء بمنزلة كبيرة لدى حكام مالي حيث كانوا من المقربين إليهم ، فهاهو الفقيه أبو عباس الدكالى[٣]، الذي كان معاصرا لمنسا موسى وكان يتولى خطة القضاء ، وقد تمتع هذا الفقيه بمقام واحترام كبيرين[٤] .

كما كان هناك الفقيه القاضي أنفار قم الذي كانت له علاقة خاصة مع منسا موسى والذي كان يوقره ويحترمه كثيرا ، حيث كان هو الوحيد الذي يصافحه[٥]

---

(١) TrimIngham J . s :Islam in west Africa ,op ,cit, ,p ١٠٠

(٢) البكري : المسالك ، جـ٢، ص٣٦٣.

(٣) نسبة إلى مدينة دكالة وهى :" تعرف كذلك باسم "يمويمن" وتقع بين مدينة مراكش وبين البحر المحيط، وهى مدينة كبيرة وهى نهاية في العمارة ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٦١٩.

(٤) ابن بطوطة : رحلته، ص٦٥٥.

(٥) يعتبر هذا حدثا عظيما جدا ، حيث كانت العادة هناك في السلام على ملوك السودان يكون بواسطة رمى التراب ، أو الدقيق على رأسه للتذلل على الأرض والسجود له ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ،ص ٣٥.

وبالإضافة إلى الفقهاء الذين كانوا موجودين في دوله مالي ، عمل منسا موسى أثناء رحله حجه الشهيرة[١] إلى جلب عناصر حجازية وقرشية حتى ينعم بحضور شرفاء يؤازرون سلطته ويكملون مشروعيتها " ...فاجتمع عليه أربعة رجال من قريش قيل إنهم من موالى قريش وليسوا من أشراف قريش ، وأعطي لكل واحد منهم أربعه ألاف ..." فالحاجة كانت ملحة لأشخاص يتوسم فيهم الشرف ، حيث المنبع الأصلي للدين الإسلامي مما يضيف هالةِ وقدسية أكبر لمملكته[٢].

ويذكر لنا ابن بطوطة أن مجلس منسا سليمان كان يحضره الخطيب والقاضي ، وكان هؤلاء ضمن حاشيته المقربين[٣] . ومما يدل على مكانة الفقهاء لدى حكام مالي ما حدث في بلاط منسا سليمان ، حيث قامت زوجته قسا بالتآمر عليه مع ابن عمه وبعد اكتشاف أمرهما عزم منسا سليمان على معاقبة زوجته التي هربت إلى دار الخطيب بعد عدم تمكنها من المسجد . فلم يلحقها أي أذى ، ورغم ما عرف عن منسا سليمان من تسامح ، لكنه كان لايسامح أحداً يرتكب أية جريمة و لذلك ساد الآمن في دولته[٤] .

ب ـ فقهاء المالكية والعرش فى دولة صُنغى :

كان الفقهاء أكثر حضورا في عهد دولة صُنغي بحيث كان هناك إطار من المعارضة ومن التحالف أيضا بين الفقهاء والعرش وخاصة علاقة السلطة مع العلماء. فقد تباينت هذه العلاقة . ففي عهد سني على(٨٦٩-٨٩٨هـ

(١) المصدر السابق ،ص٣٣.

(٢) المصدر السابق ،ص ٣٧.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧٧.

(٤) المصدر السابق : ص٦٧٠، ٦٧١.

/ ١٤٦٤-١٤٩٢م)[١] كانت هناك علاقة عدائية مع بعض العلماء، ولكن في عهد أسرة الأساكي تبدلت هذه العلاقة العدائية إلى علاقة مودة واحترام في معظم الأحوال وخاصة في الفترة الأولى من عهد آل أسكيا[٢].

وفي عهد سني علي بير وقع صدام بينه وبين بعض فقهاء المالكية ، ومن مظاهر هذا الصدام قيام كثير من الفقهاء بشن حملة كلامية وفقهية ضده وصلت إلى حد التشكيك في إسلامه واعتبروه مسلما بالاسم أو وثنيا متظاهراً بالإسلام[٣].

وبسبب هذا الموقف الذي اتخذه هؤلاء الفقهاء حدث لهم تنكيل علي يد سني علي وخاصة عندما أخضع مدينه تنبكت عام(٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) بعد أن انتزعها من حكامها الطوارق[٤] وجعلها العاصمة الثانية لدولته ، حيث كانت تنبكت المدينة

---

(١) هو ابن السلطان سن سلمن دام ، ورغم قبح سيرة سني علي وظلمه وفجوره ، فانه كان المؤسس الحقيقي لإمبراطورية صُنغى ، ففي عهده توسعت دوله صنغى وتجاوزت شهرتها وأخبارها الآفاق، حيث كان محاربا شجاعا " وكان منصوراً ، وما قابل أرضا قصده ،إلا خربها، وما كسر له جيش كان فيه ، أنظر محمود كعت :مصدر سابق ، ص ٤٣، السعدي : تاريخ السودان ، ص ٣٦، البرتلي : ، ص ١١٢، الشيخ الأمين محمد:العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطتين الإسلاميتين مالي وسنغي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب قسم تاريخ ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، ١٩٧٦م، ص ٦٧.

(٢) محمود كعت :مصدر سابق ، ص ٤٣.

(٣) المصدر سابق ، ص ٤٣، ٤٤ ،٤٥ ، ٤٦، ٤٧، السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٤، ٦٥، ٦٦ ، ٦٧، و كذلك :نقولا زيادة : المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي ، بيروت،١٩٦٧م ، ص٣.

. Mine Horace :op,cit ,p٨

Op.cit, p٢٤٨. Lansie

Levtzion,N: op,cit,p,٣٤٢.

(٤) الطوارق هم :"هم من مسوفة ينتسبون إلي صنهاجة يرفعون نسبهم إلى حمير ، وهم على دين الإسلام ،وأتباع السنة ، للمزيد أنظر السعدي ، ص ٣٥، ٣٦ ، أحمد مختار العبادى : تاريخ المغرب والاندلس ، Lansine Kaba:op,cit, p بيروت ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٩، ص ١٦، ٢٤٨. Levtzion,N:op,cit,p,٣٤٢.

الوحيدة التي شهدت معارضة لسياسته على المستويين العلمي والفقهي ، وعلى المستوى السكاني أيضا ، حيث جمعت هذه المدينة بين جنباتها الكثير من الفقهاء ورجال العلم ، والكثير من العائلات الارستقراطية الكبرى من ذوى الأصل الصنهاجي[١] أو الذين يدعون هذا النسب[٢] مثل أسرة أقيت وأسرة بغيغ وأسرة الحاج وأسرة أندغ محمد التي كانت تتقاسم مع هذه الأسر القضاء والخطابة و الإمامة والشرف والجاه[٣] هذا بالإضافة إلى الطوارق الذين حكمواهذه المدينة منذ نهاية دولة مالي بواسطة أسرة نض[٤] ، حيث سيطروا على مقاليد الأمور التي انعكست على مدينه تنبكت في النمو الاقتصادي والازدهار الثقافي ، كما كانوا يعينون من يشاءون من أفراد هذه الأسر العلمية .

ويرجع الصراع الذي كان قائماً إلي التباين بين مصالح الطرفين ، فسني على كان همه الأكبر ألا ينازعه أحد في السلطان[٥] ، ولا يكون هناك ولاء لشخص آخر

---

(١) يقول البكري عنهم : " ... وخلف بني لمتونه قبيلة من صنهاجة تسمى بني جداله ، وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينة أحد ..." وكما يضيف عن انتشارهم فيقول "...المصاقبون لبلاد السودان بنو جداله ، هم أخر الإسلام خطة وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة بين أخر بلادهم وبينها ستة أيام ، وصنغانة مدينتان على ضفتي النيل ..." البكري : المسالك والممالك ، ص ٣٥٩ ، وللمزيد أنظر أبن خلدون : تاريخه ، ص ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ .

(٢) تحدثت العديد من كتب المصادر عن بحث العديد من الأسر السودانية عن الأصول العربية أو البربرية للارتباط بالنسب الشريف ، أو عن سمو اجتماعي، أنظر : cuoq ,B : La FamiLL Aqit de Tomboutou,Revue des BeLLes Lettres Arabes,١٩٧٨N.٤١,premier Smestre,p٨٩.

(٣) Levtzion,N: Islam in West Africa,٣٤٢.

(٤) كانت مدينة تنبكت تحت حكم الطوارق الذين ولوا عليها أميرا من صنهاجة شنقيط ، وكان تامينوكال أكيل أغ أملويل أكملويل ، ذلك الأمير الذي كان ينتمي إلى الملثمين من مسوفه حاكما لها ، ومن ذلك الوقت كان الطوارق حكام تنبكت وسلاطينها حتى عام ١٤٦٩م ، أنظر أبن الوزان الزياتى : وصف أفريقيا ، ص٥٣٩ .

(٥) جميلة إبحمد التكتيك : مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير ، منشورات مركز جهاد

سواه ، حتى يتحقق حلمه الأكبر في تكوين وتأسيس مملكة شاسعة ، ولذلك اتجه للاستيلاء علي مدينة تنبكت وخاصة بعد نجاحه في غزو جني عام (٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م)[١] ومن ثم اصطدم سني علي بفقهاء مدينة تنبكت بسبب نفوذهم القوى الذي كبل يده في أكثر من ظرف، فقد شكلت هذه الفئات حاجزاً قوياً أمام أهدافه ، وذلك عن طريق حصرها لقواته وسلطته بسب قوتها الدينية والسياسية وقدرتها على التأثير في الرأي العام وفرض شروطها ورغباتها على الجهاز السلطوي كما سنرى فيما بعد .

كما أن سني على قد أسس دولة كبيرة واسعة بمجهوده الحربي الكبير ولذلك كان لا يرضى لنفسه أن يصبح أسيراً كملوك مالي الذين شاهد صنيع العلماء بهم ، ومن ناحية أخرى خشي من طوارق مسوفة أن يهددوا نفوذه باسم الدين . ولهذا الأمر عامل سني العلماء والطوارق بقسوة ،فهرب ملك الطوارق حاملاً معه علماء مدينة تنبكت ، وقيل إنه حملهم على ألف جمل. وبالرغم من ذلك قام سني علي بقتل خلق كثير منهم محمود وأحمد أندغ محمد[٢] ، كما قام بإذلال أهلها بعد أن اعتبرهم أصدقاء حميمين للطوارق ومتعاطفين معهم[٣] .

الليبيين للدراسات التاريخية ، سلسلة الدراسات التاريخية رقم ٢٦، ليبيا ، ١٩٩٨م، ٤٥.

(١) سينيكى مودى سيسوكو : الصنغى من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر،"تاريخ أفريقيا العام" ، جـ٤،اليونسكو ،١٩٨٨م ، ص٢٠٤.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٥، ٦٦ ، Clarke.B : west Africa and lslam, London ١٩٨٢,pp ٤٨/٤٩

(٣) كان السلطان "عقيل" زعيم جماعات الطوارق صديقا للعديد من الأسر النبيلة ، وأستطاع بنفوذه أن يستميل حاكم مدينة تنبكت محمد أندا ، الذي سمح الحكم الذاتي المدني للحاكم في أن يطور علاقاته مع حاكم صنغى ، وعلى الرغم من أن حكومة هذه المدينة كانت تابعه للطوارق إلا أنها اعترفت بسيادة صنغى الدولة المجاورة التي أصبحت القوة العظمى للإقليم ، ثم ساءت العلاقة بينهم بعد موت محمد أندا (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) فتولى ابنه وخليفته عمر الذي تباهى بقوته وأهان سني على في أول خطاب له ، مما أغضب سني على فأعلن الحرب على مدينة تنبكت ، فقام السلطان عقيل بعزل عمر بن محمد أندا ،

ولعل أسوأ مانسب إليه أنه أمر بالقبض على ثلاثين بنتا من بنات العلماء الأبكار ليكنّ من جواريه ، منهن ثلاثة من أسرة آل أقيت بزعم أن هذه الأسرة تتعاون مع الطوارق ولما تأخرن عن التوجه إليه وهو في مرسى مدينة كابره على النيجر ، أمر بقتلهن جميعاً وعرف هذا المكان بعد هذه الحادثة "فناء قدر الأبكار "[١] و الباحثة لا تستطيع أن تجزم بحدوث هذا الحادث لان مصدر هذا الحدث كان معادياً لسني علي . كما كان حكم سني على صارماً تجاه رعيته ، فقد فرض العمل الإجباري القائم على السخرة ، كما فرض التجنيد الإلزامي ليؤكد استعدادات جيشه للحرب ، وذكر عنه أنه أثناء نوبات من الغضب والشك كان غالباً ما يسجن الأسر النبيلة في مدينة تنبكت خلال الفترة من عام(٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م إلى عام٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م) ، ومرة أخرى خلال السنوات الآتية (٨٩٠ـ٨٩٨هـ/ ١٤٨٥ـ١٤٩٢م) ([٢]) .

وعلي الجانب الأخر يجب أن نشير إلى أن سني على لم ينكل بكل الفقهاء بل نكل ببعضهم فقط[٣] ، حيث عامل البعض الآخر معاملة حسنة وحافظ على وظائفهم

وانتشر بقواته من الطوارق من أجل السيطرة على الموقف ، وفي تلك الفترة قدم=== ===الحاكم المعزول "عمر" خدماته لسني على وأحاطه بكافه المشاكل المحلية ،وبأخبار صحة السلطان العليلة ،وهّون له من شأنه ،وأنه ضعيف في كل شئ ، في قدرته وجسمه ، وأنه رجل نحيف قصير جدا ،وأرفق برسالته نعل سلطان الطوارق ، لكي يتأكد سني على من ضأله جسمه ودعاه لكي يغزو تنبكت ، أنظر الفتاش :مصدر سابق ، ص ،٤٤، ٤٥.

Lansie kaba;op,citl, p٢٤٨ t.rimingham : Op,cit,p١٠٤. .

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص٦٦.

(٢) T.rimingham: op,cit,p١٠٠ .

(٣) levtzion.N .Islam in west African politics : accommodation and tension between the ulama Nehemia Levtzion: Islam in west Africapop,cit,٣٣٩. and the political authorities ,cahiers etudes africaines ,٧١,xvlll "١٩٧٨ ٣٣٣-٣٤٥

وخططهم مثلما فعل مع الفقيه عبد الله البلبالى " وهو أول البيضان "المغاربة" الذين قصدوا بلاد السودان الغربي، حيث قام بالصلاة بالناس في المسجد الجامع بتنبكت في أواخر دولة الطوارق وفى أوائل دولة سني على ، وقد احترمه سني على كثيراً جدا وكان من عباد الله الصالحين ..."[١]. كما نجد سني على بعد رحيل فقهاء تنبكت إلى ولاتة يقلد القضاء للفقيه حبيب حفيد عبد الرحمن التميمي ، كما كان يحترم ابن عم الفقيه المأمون الذي رفض قول السوء في سني على "فقال لا أقول على سني على سوءاً لانه أحسن إلى ولم يعمل سوءا كما عمله في الناس ..."[٢] .

والجدير بالذكر أن سني على لم يكرر حوادث إهانة الفقهاء بعد ذلك ، فوصل الفقهاء وكبار القوم بالهدايا والصلات . وتحدثنا المصادر عن سبى من نساء الفولانيين من قبيلة سنفتير حيث بعث كثيرا من نسائهم إلى " كبراء تنبكت وبعض العلماء والصالحين بالمدينة ، وأمرهم أن يتخذوهن جواري وقد تزوج الإمام عبد الله البلبالى واحدة منهن وكان اسمها عائشة الفلانية[٣] ، ومع ذلك فقد بالغ سني علي في إكرامه لبعض الفقهاء وأقر بفضلهم وأهميتهم يدل علي ذلك مقولته الشهيرة .. " لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب ويفعل الإحسان في آخرين ويحترمهم "[٤].

ومهما قيل عن تصرفات سني على المتأرجحة بين العمل الطيب و الشرير ، فإن ما ذكر عنه في كتب المصادر والمراجع والتي تستعرض مساوئه وأفعاله و التي وصفته بأقبح الأوصاف وأرذلها والتي تشكك في إسلامه يحتاج إلى إعادة نظر ، فهذه

---

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٧٨، ص ١٧٩، ١٨٠ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٧

(٢) المصدر السابق: ص٦٦.

(٣) المصدر السابق : ص٦٧.

(٤) المصدر السابق والصفحة

Sulayman S. Nyang: Islam and politics in west Africa, A Journal of Opinion ,vol .١٣،١٩٨٤, African studies Association,p٥٥.

Levtzion,N,p; op,cit,٣٣٩.

المصادر تعتمد علي المؤرخين السودانيين المالكيين المعادين لسني علي فهم طرف في النزاع من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الكثير من تصرفاته الوثنية ترجع بسبب الانتماء إلى دين أمه وتربيته بين أخواله الوثنيين ، كما أنه تعلم الطقوس السحرية ومزاولتها ولذلك أشيع عنه انه كافر[١] .

لكننا نجد أيضا حديثاً عن تصرفات أخرى مطابقة للتعاليم الإسلامية، ومنها ما يستدل علي ذلك من اسمه ، كما أن بعض المؤرخين يشيرون إلى انه أتبع تعاليم الإسلام من خلال نطقه بالشهادتين[٢] ، وصومه لشهر رمضان ، وتقديمه فروض الزكاة والصدقات على شكل حيوانات وذبائح ، هذا بخلاف أشياء كثيرة

---

(١) نلاحظ نوعا من التناقض والتضارب في تاريخ سني علي ، ونأتي إلى المصدر الثاني لمعلوماتنا حول سني علي ، والذي وصفه بالكفر وسوء التصرف ، ويأتي هذا في أطار الاسئله التي وجهها الاسكيا محمد إلى الإمام المغيلي وكان رد الإمام المغيلي عليه في أطار طرح الاسكيا لتلك الأسئلة ، نجد سؤال الاسكيا محمد يدور حول ما ذكر عن سني علي من سوء تصرف وكفر ، بسبب انتماء سني علي إلى دين أمه وتربيته الوثنية ، وفي هذا المجال أعتمد الكثير من المؤرخين على مقوله أسكيا محمد عبر سؤاله وجعلوه مصدرا أساسيا ،رغم أن أسئلته تتأرجح بين ذكر الحقيقة وتشويهها ، فيذكر أنه كان يصوم رمضان ويتصدق بكثير من الذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها ، ومع ذلك يعبد الأصنام ، ثم يذكر " ومن صفته أيضا أنه ما رؤى في جامع ولا مسجد هو ولا أحد من دائرته ...وفي دائرته ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم أن يصلي صلاة ولا أن يصوم يوما من رمضان خوفا منه أن يعاقبه " ويظهر لنا مدى تناقض الأسئلة ، و التي نسبت معلوماتها إلى الإمام المغيلي الذي توخي الحرص عند الإجابة ، رغم ما عرف عنه من تصلب في الرأي وجهاد في أمور الدين وتطبيقه ،فكان رده داخلاً في أطار القاعدة الاستشارية و الاستفتائيه، وما جواب المغيلي إلا تبعا لما قدم له من معطيات يربطها بمقوله الشرع في هذه الأسئلة ، فيقول "فإن كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر " كما كانت بقيه الأسئلة تهتم بكيفية محاوله استيلائه على ارث سني علي معتمدا على مسألة تكفيره وإثبات ذلك بفتوى من الإمام المغيلي ،أنظر محمد عبد الكريم المغيلي : أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي ، تقديم وتحقيق، عبد القادر زباديه ، ص ٣٤، ٣٥ ، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣.

Lansie kaba: the pen , The swrd , and the crown, Islam and Revolution in songhay, p٢٥٦.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٣.

من الهبات إلى ذوى الحاجة والفقراء. ولهذا فإن الاعتماد على هذه المصادر غير كاف للحكم على مواقف وتصرفات سني على خاصة الدينية منها[١] .

ويري البعض أن الصراع كان في أساسه صراعاً سياسياً اقتصادياً ، وليس صراعاً بين الوثنية والإسلام ، والذي استعمل كوسيلة لضرب سني على ، ولم يكن صراع ثقافات مع العلم أن الهيئة العلمية المتمثلة في فقهاء المالكية لم تكن تسعى إلى الزعامة السياسية والرئاسة[٢] ، بل كانت تسعى إلي تسيير السلطة القائمة من خلال إطار التوجيه الذي يؤثر تأثيراً مباشراً وغير مباشر في الجهاز الحاكم ، حيث يعتمدون على الدين والانتماء الاجتماعي أو النسب الشريف . وبذلك فهم يحتلون مهمة الإرشاد والنصح والتخويف والترهيب ، وقد يكتفون بالمعارضة أو الرفض الذي يتطور في بعض الأحيان ليتخذ أشكالاً أكثر تطورا من المعارضة الفقهية ويتخذ أشكالاً أخرى تسعى إلى تغيير النظام القائم بنظام جديد .

حدث هذا عندما مات سني على بعد حكم استمر قرابة ثمانية وعشرين عاماً في ١٥ المحرم عام (٨٩٨ هـ / ٧نوفمبر ١٤٩٢م)[٣] ، بعد أن أدى صراعه وسياسة

---

(١) .وفى إطار الفتاوى التي طرحت على الإمام السيوطي ، كان هناك أسئلة حول سوء تصرف السودانيين في القضاء وأمور الدين والدنيا ، وابتعادهم عن الإسلام ، ولو قارنا ذلك بما قيل عن سني على ، وإن ثبت الأمر ، فقد تكون تلك مجرد تصرفات عامة كانت موجودة ومنتشرة بين المجتمع ولم تكن لصيقة بشخص معين ، أنظر السيوطي : الحاوي للفتاوى جـ١، ص ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٤.

LansiekABa:op,cit,p٥٣٥٤.

(٢) وخير دليل على ذلك اعتذار الفقهاء عن الخطط الدينية خوفا من الظلم والمسؤولية ، ولكن هذا لا يشكل أي تناقض بين الهدف من تسيير السلطة والقيام بوظائفها ، ولان حضورهم على الساحة مرتبط بعلمهم ، لا بوضعهم في الهيئات السلطوية ،أنظر ،

Clssoko ,s .m .L , intelligentsia de Tombouctou,BlfAn,١٩٦٩,t,xxx,p.٩٤٧,

Levtzion,N : Islam in west Africa, p ٣٣٩.

(٣) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٥١، ص ٥٥، السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٤، ص٧٠، ص ٧١

القمع التي اتبعها مع بعض فقهاء مدينه تنبكت إلى تحالفهم مع القائد محمد تورى الذي سلك سياسة إسلامية واضحة أمدته بتعاون أكبر مع الفقهاء[١] .وكان عرش صُنغى قد أرتقاه في عام (٨٩٨ هـ/ ١٤٩٢م) ابن سني على المدعو أبو بكر وكنيته (سني بارو) في وسط من المعارضة ، خاصة من محمد تورى المدعو (بمنساكورا والباراكوى) قائد المنطقة العسكرية حول بحيرة ديبو مما أدى إلى حدوث انقسام في الجيش الملكي وخروج محمد توري علي سنى بارو[٢]وأتباعه الشروط الأساسية لإعلان الجهاد في سبيل الله[٣] ، فأرسل الفقيه العالم محمد تل الشريف إلى بارو يدعوه إلى الإسلام وهو في بلده انفع ، فأبى وامتنع فأغلظ الكلام لذلك الفقيه وأرتكب معه امراً عظيما حتى هم بقتله فصده الله عن ذلك ، ورجع إلى القائد محمد وأبلغه الخبر من رفض سني بارو وما فعله به . ثم أرسل محمد توري الفقيه صالح جور إلى سني بارو مرة أخرى فأتاه وأبلغه رسالة القائد محمد فما ازداد إلا عتواً وامتناعاً وتجبراً وأتى بأشد من فعلته الأولى ، حيث أشار عليه وزراؤه بقتل هذا العالم حتى تنقطع رسله ولكن منعه الله وقال له أذهب لمرسلك فإن رجع إليَّ بعد رسول منه فدمه في عنقه . وذهب إلى القائد محمد تورى وأخبره ما حدث ومدى رفضه الدخول في الإسلام ، هنا جمع محمد توري أهل مشورته من الفقهاء والأكابر وشاورهم في أمره فأشاروا عليه بإرسال رسول ثالث يداريه ويلين له في الكلام لعل الله يهديه إلى الإسلام فأرسل الفقيه القاضي محمود كعت فامتنع وأزداد إصراره وأمر بضرب طبول الحرب وعاد وبلغ القائد محمد تورى بما حدث واستعد القائد محمد توري للحرب وبايعه الجميع[٤] .

---

(١) levtzion.N:op,cit,p٣٣٩ .

(٢) Lansie .op,cit,p٢٤٢.

(٣) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٤، ص٤٥، ص٤٦ ،
Louis Brenner: Histories of Religion in Africa , Journal of ReIigion In Africa,vol.٣٠,Fasc.٢May,٢٠٠٠.p١٤٥.

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٦.

وهكذا وبعد رفض سني بارو القسم بالولاء للدين الإسلامي والاعتراف به دينا رسميا للدولة، التقي الطرفان محمد توري وجيشه بجيش الموالين لسني بارو في معركة "أنافو" بالقرب من جاو عام (٨٩٩هـ/ ١٤٩٣م) حيث فر على أثرها سني بارو إلى دندى في الجنوب، كما ذكر ذلك أحد المؤرخين بقوله " إن الله حرر المسلمين من الكرب والأسى ، عدا الملك الجديد فإنه وضع حدا للمعاناة التي كانوا يتحملونها[١] ومع هذا النصر بدأت حقبة جديدة في تاريخ دوله صُنغى حيث انتهي حكم أسرة سني الذي أستمر زهاء تسعة قرون[٢] وقامت أسرة جديدة هي أسرة الأساكى[٣]التي كان أول ملوكها الأسكيا محمد توري

---

١) كرم الصاوي باز : الصراع بين العرش والعلماء في سنغاى ، في الفترة من "٨٦٩-٨٩٩هـ/ ١٤٦٤-١٤٩٣م" مجله الدراسات الإفريقية - العدد ٢٢ ، ٢٠٠٠م ، ص ٧٨.

Lansie kABa:op,cit,p ٢٥٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة صنغاى ، مجلد ١٢ ، ص ٢٦٥، أنظر في الملاحق ، أسرة سني على .

(٣) اتخذت الأسرة الحاكمة الجديدة لقب الاساكى ، واستمرت تحكم حتى نهاية صنغى على أيدي المراكشيين عام (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م أي بعد نحو قرن ، حكم من الأسرة نحو ٢٢ سلطانا مستقلين : ١٣ منهم مستقلين ، ٩ كانوا من صنائع المراكشيين باشاوات تنبكت ، أنظر في الملاحق ،أسماء أسرة الاساكى ، وترجع تسميه هذه الأسرة بلقب الاساكى إلى أن بنات سني على ، عندما علمن بخبر ولاية محمد توري ، صحن : "أسكيا " ومعناه في كلامهم ، كما يقول السعدي : "لا يكون إياه" وفسره بعض كتاب الغرب بمعنى المغتصب ، فلما سمعه محمد توري ، أمر ألا يلقب إلا به ، فقالوا أسكيا محمد ، أنظر السعدي : تاريخ السودان ، ص٧٢===

Samba Gadjigo: Scribe, Griot, and Novelist: Narrative Interpreters of the Empire by Thomas A. Hale , Research in African = = =Songhay .

Literatures, Vol. ٢٢, No. ٤ (Winter, ١٩٩١) Indiana University Press,p. ٢١١,

Scribe, Griot, and Novelist: Narrative Interpreters of the : Ronald Niezen Songhay Empire by Thomas A. Hale, Journal of Religion in Africa, Vol. ٢٢, Fasc. ٢ (May, ١٩٩٢), BRILL pp. ١٨٤.

وقد أصبح لفقهاء المالكية في عهد هؤلاء الأساكى نفوذ كبير حيث كانت علاقاتهم قوية بالسلطة خاصة في عهد هؤلاء الأساكي الأقوياء ، فكانت لهم مواقف تبرهن على توجيههم للسلطة، وتبرهن كذلك على تحديهم لسلطة الحكام وإرادتهم ، فنجد أن الحكام خضعوا لهم واستجابوا من أجل دعم مشروعهم السياسي والديني المتمثل في وضع أسكيا محمد قواعد هذا المشروع ، فسعى للتقرب إلى الفقهاء وصاحبهم ، وقلدهم جميع الأمور وأعلى من مقامهم ورفع قدرهم وأشتهر أسكيا محمد بأنه كان يقدر العلم وأهله فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم ، وكان لا يقف لأحد إلا للعلماء والحجاج ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم[١] لأن هؤلاء الفقهاء هم وحدهم الذين يستطيعون التأثير على المسلمين في أنحاء دولته وهو الأمر الذي يحتاجه أسكيا محمد[٢].

وارتفعت مكانة فقهاء المالكية في عهد أسكيا محمد وخاصة فقهاء تنبكت[٣] فمن تقديره لهم أنه عندما كان يصل إلى هذه المدينة كان أول دار يدخله دار الفقيه القاضي الذي يكون في انتظاره، ويصنع لهم القاضي شيئاً من الأكل والشرب لأنهم يريدون التبرك به ، ويأكلون ويشربون بعد دعاء كثير على العادة . ثم يتوجه إلى المسجد الجامع بهذه المدينة وهنالك يتلقاه علماء البلد الأجلاء ، وأكابر الأئمة وجميعهم يدخلون المسجد قبل قدومه وينتظرونه ويشيعه القاضي وشهوده فيدخل على الفقهاء في الجامع الكبير[٤] .

---

(١) الحاج مرحبا : فتح الحنان المنان بأخبار السودان ، معهد البحوث والعلوم الإنسانية ، نيامي النيجر ، رقم ١٠٨ ،ص ٢٣ب .

(٢) أحمد بابير الأروانى : جواهر الحسان في أخبار ملوك السودان مخطوطة ، معهد البحوث والعلوم الإنسانية نيامي النيجر ، مخطوطة رقم ١٠٦ ، ص ١٣ ب ، Lansie kABa: op,cit, ,p ٢٥٦.

(٣) Moreou , R : Africains Musulmans ,inades edition prence Africaine,١٩٨٢,p١١٨\١١٩.

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ،ص ١١٠ ،ص ١١١ .

وتتلخص سياسة الأسكيا مع العلماء والقضاة في الإحسان إليهم بكثرة العطاء ، وجعل هذه السياسة قاعدة لمن أتوا بعده فعليهم أن يحترموهم ويحسنوا إليهم والى ذويهم حيث اقتضت المصلحة أن يكون هناك تحالف بين الطرفين[١].

ومن الأدلة على ذلك أنه عندما وهب الأسكيا محمد للفقيه محمود جارية وأمره أن يتخذها سرية ففعل ، ثم أرسل أسكيا محمد ألف مثقال للفقيه محمود وقال له :" إن ولدت سريتك ذكرا فسمه باسمي وأعطاه ألف مثقال " وبالفعل أنجبت هذه السرية للفقيه محمود ابنه الذي تولي القضاء فيما بعد[٢].

ويتحدث محمود كعت في تاريخ الفتاش عما كان للفقيه صالح جور عند الأسكيا محمد من الإكرام والعطاء[٣] .ومن كثرة عطايا الأسكيا محمد للفقهاء وأحفادهم ما حدث مع حفدة الشيخ مور هوكار عام(٩١٣ هـ/ ١٥٠٧م) . بعد أن غزا ونزل في قرية كبر و تلقاه هنالك ثلاثة رجال من حفدة الشيخ مور هوكار وهم مور الصادق ، ومور جيب ومور محمد الذين أخذهم سني على في زمنه واشتكوا إلى أسكيا محمد البؤس والشدة ، فأمر بالكثير من العطايا فدعوا له وشكروه وطلبوا منه أن يكتب لهم كتاب الحرمة حتى لا يتعرض لهم أحد بظلم و لايتعدي عليهم أحد فرضي وأجاب[٤] .

Hunwik,J :secular power and Religius Authority in Muslim society: the case of songhay , the Journal of African History ,vol.٣٧,No.٢,p١٧٧. :

(١) محمود كعت : ص ٧٢، ٧٣.

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢.

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢.

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٢، ص ٧٣ ، ص ٧٤، ص ٧٥، أنظر في الملاحق نص كتاب أسكيا الحاج محمد لحماية أبناء العالم محمد هوكار عام (٩١٣هـ/ ١٥٠٧م) ومنحهم أمتيازات وإعفاءات من الضرائب والالتزامات المقررة بحكم العادة ، أنظر

Hunwik,J : op,cit,,p١٧٧. N. levtzion ,op.cit,p ١٣٨.

ولم تقتصر علاقة الأساكي بفقهاء المالكية علي عطف ورعاية الأساكي لهم بل تطورت هذه العلاقة من خلال قيام هؤلاء الفقهاء بدور التوجيه والنصح والإرشاد لهؤلاء الأساكي، يتضح هذا في أجوبة المغيلي عن أسئلة الأسكيا محمد إذ يقول له ناصحاً وموجهاً : " ... إنما أنت مملوك لا تملك شيئا ، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم ..." (١) . ويتضح أن غرض الإمام المغيلي من رده ذاك هو أثارة التخويف والترهيب من تسلط الحكام علي الرعية.

وهناك واقعة أخرى تبرهن على دور الفقهاء وتحديهم للسلطة الحاكمة ، ودورهم في النصح والإرشاد ، ومن هذا ما حدث بين الأسكيا محمد والفقيه القاضي محمود بن عمر قاضي تنبكت المتوفى عام (٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م) فقد رفض القاضي تنفيذ أوامر أسكيا وقضاء بعض حوائجه ، وعاتبه أسكيا الحاج محمد على ذلك فأجابه القاضي : " هل نسيت أم تناسيت يوم جئتني في دارى وأخذت برجلي وثيابي فقلت : " جئت أدخل في حرمتك وأستودعك نفسي أن تحول بيني وبين جهنم فا نصرني وأمسك بيدي حتى لا أقع في جهنم وأنا وديعتك" فهذا سبب طردي رسلك ورد أمرك ، فقال الاسكيا نسيت ذلك والله ولكن ذكرته الآن ، فأنا أستغفر الله وأتوب إليه(٢) .

كما كان الأسكيا محمد لا يقدم على أمر إلا بعد مشورة هؤلاء الفقهاء وأخذ رأيهم في مسائل السلم والحرب ، كما كانوا هم رسله في معظم الأحوال ، ويتضح

---

(١) المغيلي : أسئلة الاسكيا وأجوبه المغيلي ، ص ٢٣ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٦١ ،

song hay :A Reconsideratin f Autnmy,the Journal of African History ,vol.٣١,No.١ (١٩٩٠),p ١٥. Nehemia Levtzioncit, ٠p,p٣٤١.

Michaal A .Games :Timbuktu under Imperia song hay :A Reconsideratin f Autnmy,the Journal of African History ,vol.٣١,No.١ (١٩٩٠),p ١٥ .

ذلك بعد عودته من رحلة حجه الشهيرة عام(٩٠١هـ / ١٤٩٥م) ، حيث أراد أن يغزو دولة موش فأخذ مشورة الفقيه مور صالح جور الذي أفتى له بأن يجعلها جهادا في سبيل الله فلم يخالفه في ذلك وبين له جميع أحكام الجهاد ، فطلب الاسكيا من الفقيه مور صالح أن يكون رسولاً بينه وبين سلطان موش (١) فوافق أسكيا وأرسل هذا الفقيه إلي سلطان موش ، وبعد أن وصل وبلغه رسالة اسكيا طالباً منه الدخول في الإسلام رفض هذا السلطان وقال للفقيه ما بيننا وبينكم إلاالحرب . عاد الفقيه وأخبر الأسكيا بما حدث وقال له الآن ما عليك ياأسكيا الحاج محمد إلاقتالهم ، وبالفعل قاتلهم وخرب ديارهم(٢).

وتكرر الأمر في الأخذ بمشورة الفقهاء عندما طلب الإمام المغيلى من الأسكيا محمد الكبير االقبض على أفراد الجالية اليهودية التواتية في صُنغى لتورطهم في مقتل ابنه أثناء غيابه في رحلته إلى بلاد السودان . وجاءت هذه الجريمة تحريضاً من يهود توات الذين أرادوا الانتقام من المغيلى بسبب تحامله عليهم ، وتحريضه على هدم بيعهم. وكاد الأسكيا أن يلبى طلب الإمام المغيلى لولا استشارته للقاضي محمود بن عمر (٨٦٨ـ٩٥٥هـ/ ١٤٦٣ـ١٥٤٨م) الذي تدخل واحتج على ذلك ، وأمر

---

(١) موش هي :" دولة ظهرت في منعطف نهر النيجر ، وكانت ذات تنظيم سياسى وعسكري ، وأهلها من المحاربين الذين هاجموا مدينة تنبكت زمن منسا موسى حاكم دولة مالي ، كما دخلوا في صراع عسكري مع سني على في زمن دولة صنغى ، واكتمل الصراع في عهد الاسكيا محمد الكبير الذي شن عليهم الحرب باسم الدين وأنتصر عليهم . أنظر : ميشيل أيزارد : شعوب وممالك منعطف النيجر حوض الفولتا ، تاريخ إفريقيا العام ، اليونسكو ، ١٩٨٨م ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٣، ٢٢٥.

Miner Horace: op.cit ,p٨.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ٧٤.

الأسكيا محمد بإطلاق سراحهم ، مما كان سبباً في غضب الإمام المغيلى الذي قفل راجعا إلى توات التي ظل بها حتى وفاته[١] .

وهناك أحداث تظهر مكانة هؤلاء الفقهاء عند الأسكيا محمد ، منها أثناء رحلة حج الاسكيا محمد الكبير(٩٠٢هـ/ ١٤٩٥م) وقفت الرحلة للراحة فقام الأسكيا محمد الكبير يقسم التمر بين أهل الرفقة كعادته ، فأعطى جميع الناس ونسى الفقيه محمد تل الذي حزن وحزن معه أهل منزله . وتحدث بعض أهل الرفقة بأن هذا أمر عن عمد ومنهم من اغتاب الأسكيا محمد ، وحين علم الأسكيا محمد بما حدث منه تجاه هذا الفقيه أنكب على يديه و قدميه يقبلهما و يعتذر له بالنسيان[٢].

كما كان لبعض كبار فقهاء المالكية دور في الحفاظ علي دولةُصنغي من الاضطرابات والفتن الداخلية خاصة في الفترة التي أعقبت عزل أسكيا محمد واستيلاء ابنه موسي علي الحكم في عام(٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م) ،فقد منعوا هذا الأسكيا من التنكيل بإخوانه ومعارضيه منعاً للفتن الداخلية .ومن ذلك جهود الفقيه محمود بن عمر المتوفى عام(٩٥٥هـ/ ١٥٤٧م) للصلح بين الأسكيا موسى بن الأسكيا محمد الكبير وبين إخوته بعد أن قام بخلع أبيه من الحكم ،فطلب منه الفقيه القاضي محمود العفو عن إخوته وأن يتجنب الفتنة بينه وبينهم لما فيه من قطع الرحم والفساد في الأرض[٣].وقد دخل بيت القاضي محمود (بنك فرم بل) ابن الأسكيا محمد وأستحرم به فبعث الأسكيا موسى يطلب شفاعته ، فقال : "كل من دخل دار

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧٧.

Trimingham J.s :Islam in west Africa,,p٣٤٤.

Abd-Al-Aziz Abd-Allah Batran: op,cit, ,p ٣٨١.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٦٨.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٨٢..Trimingham J.s : op,cit, ,p٣٤٠

القاضي محمود فهو آمن "[١] ، كذلك خرج الفقيه مورمع كنكى الذي شبه فعل أسكيا موسى بفعل سني على ، فخرج مع الطلبة من جنج فسلم على الأسكيا موسى وسلم عليه ودعا له ، ثم طلب منه أن يعفو عن درمكى وبركي وهما من قواد الجيش ، وقال له لا ترد شفاعتي حتى لا أكف لك عن الدعاء. ورغم صراحة الفقيه مورمع كنكى وإظهاره لرأيه المعارض لسياسة أسكيا موسى ، فإن الأخير لم يتخذ أي موقف تجاهه[٢] نظرا لقوة هذا الفقيه وقوة الهيئة التي ينتمي إليها، خاصة وأن أسرة الأسكيا مرتبطة عضويا بمساندة الفقهاء .

بعد مقتل الأسكيا موسى على يد أحد إخوته في عام (٩٣١هـ / ١٥٣١م) . لم تهدأ الحروب ، رغم اعتلاء الأسكيا محمد بنكن ابن عمر كمزاغ العرش بعد مقتل ابن عمه ، ثم اعتلى العرش أخوه إسماعيل الذي عمل على تهدئة الأجواء منذ عام(٩٣٦هـ / ١٥٣٧م) وأخرج أباه الأسكيا محمد من سجنه في جزيرة كنكاك ، وولى إخوته كرؤوس حكومات محلية، فأحسنوا السيرة واحترموا الفقهاء ، وضربوا على أيدي المرابين وحددوا الأسعار[٣].

ولما تولى الأسكيا إسحاق العرش عام(٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م) ، تقدم الفقهاء والأعيان لمبايعته بالملك ، وذهب هو بنفسه إلى مدينة تنبكت ودخل دار القاضي محمود أقيت طالبا منه الدعاء . وكان الأسكيا إسحاق صالحاً مباركاً كثير الصدقات حريصاً على صلاة الجماعة سباقا إليها قبل غيره و لا يمنعه عنها المطر والوحل وظلمة الليل[٤].

---

(١) نفس المصدر ، ص ٨٣.

(٢) السعدي : المصدر السابق ، ص ٨٦.

(٣) . المصدر السابق والصفحة

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٨٨.

وقد انتهز فقهاء المالكية حرص أسكيا إسحاق على العدل وتدينه الشديد فقاموا بنصحه وحثه علي السير في رعيته بالعدل ، ويتضح هذا الأمر حين زار هذا الأسكيا مدينة جني ودخل مسجد المدينة الكبير وأمر أن يحضر العامة والخاصة من سكان هذه المدينة ، ثم جاء الأسكيا ومن معه من الأعيان وامتلأت الصفوف و الأساطين ثم أمر ترجمانه أن ينادى بالناس يعلمهم حالفا بلفظة "والله" ماسافرت سفري هذا إلا لإصلاح البلاد ولمصالح العباد ...والآن من يؤذى المسلمين ومن يظلم الناس في هذا البلد . ودخل الترجمان في الصفوف يتتبعها ويقول ذلك والجماعة ساكتة ، وكان ممن حضر في تلك الجماعة الفقيه القاضي محمود بن أبى بكر بغيغ وهو جالس بقرب الأسكيا ، فلما طال الحال عليهم فما رد أحد له جوابا قال له الفقيه محمود : "الحق ما تقول يا إسحاق فقال والله الحق فقال :إن علمناك بذلك الظالم فماذا تفعل له ، فقال له : ما يستحق من قتل أو ضرب أو سجن أو إجلاء أو رد ما أتلفه من المال وغرمه ، فقال له الفقيه محمود : "ما عرفنا هنا أظلم منك أنت ولا يغصب غاصب هنا مغصوبا إلا لك وبأمرك وبقوتك إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك ...!". فلما سمع الأسكيا بذلك تحير ودهش وتنفس الصعداء وبكى وندم على قوله حتى رحمه الناس وحتى عبس وجه قومه على الفقيه محمود بغيغ .وقال له بعضهم أنت القائل للسلطان هذا القول ، وكادوا أن يسطوا عليه فردهم الأسكيا عن ذلك وانتهرهم فما صدر منه إلا الأذعان والخشوع والحشمة ، بل قال : صدقت والله وأنا تائب لله واستغفره ثم نهض إلى منزله باكياً، ثم ولاه قضاء مدينة جني بعد إباية من هذا الفقيه[١].

وقد نهج أسكيا داوود الذي تولى العرش عام(٩٥٦- ٩٩٠هـ/١٥٤٩ -١٥٨٢م) [٢] نهج الأسكيا محمد الكبير في سياق احترامه وتوده للفقهاء ، فنجده

(١) المصدر السابق: ص٨٨ ، ص ٨٩.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص١٠٠، ١١٣.

مع والد أحمد بابا الفقيه أحمد ابن عمر بن محمد أقيت(٩٢٩-٩٩١هـ / ١٥٢٢-١٥٨٣م) والذي كان عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك والناس كافة نافعا بجاهه ،ولذلك كان لا يرد له شفاعة وكان هذا الفقية يُغلظ القول للملوك فمن دونهم ، وينقادون له أعظم الانقياد ، ويزورونه في داره ، ولما مرض في كاغ في بعض أسفاره ، كان أسكيا داوود يأتي إليه بالليل حتى يبرأ من مرضه وسمر عنده تعظيما لقدره[١] .

وتظهر أخلاق أسكيا داوود الحميدة من خلال حسن ملاطفته مع القاضي العاقب عند بناء المسجد الكبير في تنبكت ، وقد سعى وشاة وتقولوا على لسانه ما لم يقل ، وأرسل له أسكيا أقوالاً لا ينبغيأن تُقال بينهما ، فأجابه القاضي بأجوبة قاسية لا يصبر عليها إلا مثل داوود . فلما أتاه أسكيا في سفره إلى مل وزاره في بيته وعليه الحاجب الذي رده وأبى أن يدخله عليه فوقف أسكيا على بابه على قدميه وقوفا طويلا وما أستأذن له في الدخول إلا بشفاعة بعض فقهاء البلد وأكابر شيوخه ، ثم أمر بفتح الباب له ودخل عليه متملقا متواضعا متذللا وانكب على رأسه فقبلها وجلس بجانبه مستوقراً حتى أرضاه ورضي وتوافقا بعد إباء وامتناع[٢] .

كذلك حدث في عهد الأسكيا داوود خلاف بينه وبين الفقيه محمود كعت ، ويدل هذا الخلاف في نهايته على مدي تحدى سلطة الفقهاء لسلطة الحكام وإرادتهم ، وكذلك اعتراف السلطة الحاكمة بقدرهم[٣] فقد قال الأسكيا داوود للفقيه محمود

---

(١) محمود كعت :مصدر سابق ، ص١١٥.

(٢) المصدر السابق : ص ١٠٩.

(٣) ومن ذلك : "في يوم مقدم بعض الحجاج من أهل تنبكت وجواليها في بعض السنين وكان منهم رجل من أهل كنت وهو من مماليك أسكي داوود وقد حج معهم ونزلوا بخارج بلد كاغ وعادة الحجاج في وقت دولة صُنغى إذا قفلوا ينزلون خارج البلد ولا يدخلون إلا بعد مشاورة أسكيا ، واستئذانه ويخرج الأسكيا لملاقاتهم ويأتيهم بالكسوات واللباس ويسألهم الدعاء والتبرك بهم فلما قدم هؤلاء الحجاج

كعت " ولولا العلماء لكنا من الهالكين فجزاك الله عنا خيرا "، وبعد رجوع هذا الفقيه إلي بلده أرسل أسكيا عشرة أثواب وخمسة عبيد ، وقال له : " هذا جزاؤك لأنك حلت بيني وبين معصية الله وغضبه وأعوذ بعزة الله وقدرته من ذلك "[1].

وتعددت الروايات التاريخية التي تبين احترام أسكيا داوود لفقهاء المالكية منها ما حدث بينه وبين الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت الذي قدم له نقداً لاذعا (٢) عندما ذهب إليه بعدما عفا عن الفقيهين

المذكورون ونزلوا بخارج البلد على عاداتهم المألوفة وسمع بذلك الاسكيا داوود وكان عنده الفقيه كعت الذي خرج معه ومعهم بعض رؤساء البلد ، وبالفعل وصل أليهم وأتوه ونزل أسكيا بنفسه إجلالاً لهم وتعظيما وقبل أيديهم وأقبل الرجل الكنتوى الذي تقدم ذكره بأنه من مماليك أسكيا داود وهو لا يشعر به و لا يعلم أصله فصافحه وأراد تقبيل يده ،وكان هناك رجل بجانب أسكي داوود ، وقد عرف ذاك الحاج الكنتوى المذكور وعرف أصله وأبويه وقال له : أخرج يدك من يد أسكيا أتصافحه بيدك وما خرجت من قوم يقدر على هذا فكيف أنت عبد و ما أجراك على مصافحة السلطان وأخذ بيده ونزعها من يد أسكيا وحلف على قطع يده التى أدخلها في يد أسكي وعظم القوم ذلك وتعجبوا من جرأته على يد أسكي بإدخال يده فيها والفقيه كعت ساكت بجانبه ، فألتفت إليه أسكيا وقال : يا محمود ما تقول في هذه المسألة فما جزاء من جهل قدرة وهنا قال الفقيه محمود كعت آلا أن تقطع يده وهذا أولى به فقال له أسكي أنشدك بالله هل يجوز قطع يده على هذا فقال كيف لا يجوز قطع يد من وقف عرفة وطاف الكعبة ووضعها على الحجر الأسود ثم وضعها على الركن اليماني ورمى بها الجمرتين ثم زار الرسول ﷺ ووضعها على قبر أبى بكر وعمر ، ثم لم يكتف بهذه المزايا والفضائل والمحامد كلها حتى أتاك يصافحك بها لتعطيه غرضا قليلا حثيثا من أعراض الدنيا ، بل حق هذه اليد أن يضن صاحبها بها ويحفظها من النجاسة ولا يرضى أن يصافحك بها قلما صافحك بها ظنناها ختمت لها بسوء الخاتم ، ونعوذ بالله من ذلك . محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١١، ١١٢ ،١١٣.

(١) المصدر السابق ، ص ١١٣.

(٢) وكان هذا النقد عندما قال له الفقيه : عجبت منك حين دخلت عليك وما حسبتك إلا مجنونا رذيلاً سفيها حين رأيتك تبصق في أكمام قمصان والناس يحملون على رؤوسهم التراب لك ، فضحك الاسكيا وقال : ما كنت مجنونا أنا بعقلي ولكن كنت رئيس المجانين الفاسقين المتكبرين ، ولذلك جعلت نفسي مجنونا وأدخلت الجن على نفسي تخويفا لهم لئلا يتعدون على المسلمين ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٤.

محمد بغيغ وأخيه أحمد بغيغ[١] في كاغ . وبقى الفقيه أحمد بن محمد عنده فأمر الأسكيا بطعامه وناشد الفقيه أحمد بالله أن يأكل معه فأجاب فأكل، ثم خرجا لمقابلة الفقيهين ، وعندما شهدهما أنكب على رأسيهما يقبلهما وحياهما بأحسن تحية وإكرام مع ضيافة عظيمة وزيّارتهما كل ليلة إلى رجوعهما بالمنح التي زودهما بها[٢].

وكان لفقهاء المالكية مواقف خاصة في الأزمات التي تعرضت لها صُنغي ، وبخاصة في أواخر عهد الأساكى فعندما تعرضت البلاد إلى الحملة المغربية وبسبب مواقفهم المؤثرة داخل المجتمع أرسل المنصور السعدي مع جودر باشا عام ٩٩٨هـ/ ١٥٨٩م (٣) عندما دخل مدينة تنبكت رسالة إلى قاضيها الإمام العلامة أبي حفص

---

(١) بعدما رفضا منصب القضاء وألح عليهما في ذلك ولكنهما رفضا وهربا ودخلا المسجد وأقاما به شهورا ويأتي رسل أسكي كل يوم إلى أن عفي عنهما ثم قال لا أعفو حتى يأتياني إلى كاغ ونتبرك برؤيتهما فخرجا إلية وخرج معهما الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد وبالفعل ذهب إلية الفقيه أحمد بن محمد وحده وترك الفقيهين المذكورين بمرسى كاغ ودخل علية والتقاه في مجلس الجمعة على عادتهم وعبيده الخصيان واقفون على رأسه وكانوا نحو سبعمائة وعلى كل واحد منهم لباس الحرير ، وإذا أراد أسكيا أن يبصق أو يتفل أسرع إلية بعض الخصيان وباسطاً له كمه ليبصق فيه ثم يمسح فاه من النخام ، ودخل الفقيه وتلقاه الاسكيا بالترحيب حتى كاد أن يقوم لملاقاته إلا أنهم أذا جلسوا على سريرهم في ناديهم يوم الجمعة أو يوم العيد لا يقومون لأحد ولا يجلس أحد معه على سريره ، ثم أمر بإخراج الناس فأخرجوا ليخلوا بذلك الفقيه فلما انفرد به قام إليه وحمل حصير الصلاة بيده وفرشه له وأجلسه علية وحمل إليه الوسادة وقبل يده ومسح وجهه بها ثم أخبره الفقيه بمكان الفقيهين بالمرسى وفرح الإسكيا بهما كثيرا ، ثم امر الفقيه الفع بكر الإنبارى أن يأتيهما هنالك وأسرج الفرسين ليركبوهما وفعلوا وسمى لهم بيتا ينزلون فيه، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٤، ص ١١٥، Levtzion,N:op cit,p١٥٥.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ١١٥.

Stephen Charles Cory: The Caliphate and polilicaI Legitimacy In EarIy Modern Morocco, ADissertaion submitted in partial satisfaction of the requirements for the degree of doctor of philosophy in History, University of California Santa Barbara,٢٠٠٢,p١٤.

عمر بن الشيخ سيدي محمود بن عمر أقيت ، يبرر له أسباب الحملة ، وأن يحض الناس على الدخول في الطاعة ولزوم الجماعة[١] ، لان هذا لا يحدث إلا بمساعدة الفقهاء .

وفى بداية حكم المغاربة حدثت الفتنة بين أهل تنبكت وبين القائد التركي ، فتدخل القاضي أبو حفص عمر بن محمد بن محمود أقيت ، وطلب الشفاعة من الأمير المغربي لمجموعة من أهل تنبكت ، وانتهى الأمر بقبول الأمير شفاعته لعظم قدره وعقد الصلح بين القائد وأهل تنبكت[٢] .

وهكذا ارتفعت منزلة فقهاء المالكية بفضل توقير حكام صُنغي لهم واعترافهم بدورهم في حماية الملة وبفضل هذه المكانة أسندت إليهم العديد من الوظائف والولايات الدينية التي ستتعرض لها .

(١) القشتالى : " أب, فارس عبد العزيز القشتالى المتوفي عام"١٠٣١هـ/ ١٦٢١م" مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء ، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم ،مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ١٩٧٧م ، ص ١٣١ ، ص ١٣٣ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

٢ـ الخطط والولايات التي تولاها فقهاء المالكية في السودان الغربي :

أـ خطة الكتابة[١] :

اعتبر ابن خلدون خطة الكتابة إحدى الصنائع التي تؤدى إلى مخالطة الملوك، فأصبح لها بذلك شرف ليس لغيرها[٢] . وتبرز أهمية الكاتب في المرحلة التي يشب فيها عود الدولة ، ويشرع خلالها الأمراء في تحصيل ثمرات الملك من الخراج و الجبايات وغيرها ، وعندئذ يصبح أرباب الأقلام أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر إليه ترددا[٣] .

وكان رجال الدين يعتبرون طبقة من المتخصصين أساسا في فن الكتابة، ويمتلكون نظامهم الخاص بهم ، كما كانت خطة الكتابة تتجه إلى أن تكون وراثية [٤]. وقد تجلت حاجة دولتي مالي وصُنغى للكتابة من أجل توجيه الأوامر للرعية وكتابة الرسائل والإشراف على جباية الموارد وما يتطلبه ذلك من حسابات ، فضلا عن نقل أخبار المعارك . لذلك كان من الطبيعي أن يحتل الكاتب مكانة مرموقة في سلم الهرم الوظيفي ، وأن تشمله رعاية الأمراء سواء في دولة مالي أو دولة صنغى ،

---

(١) تشبه وظيفة الكاتب في عدة وجوه وظيفة كاتب الديوان التي كان لها أصولها وقواعدها ولاسيما في العصر العباسي الأول عندما اقترنت باسم عبد الحميد الكاتب ، أما في السودان الغربي عامة وفى تنبكت خاصة فقد اقترنت باسم كاتب موسى الذي تولى هذه الوظيفة في عهد السلطان منسا موسى ، وهي الوظيفة التي انحصرت في حمل قرارات الحاكم إلى أقاليم دولته المختلفة ،والقيام بالأمور الكتابية الخاصة بالعلاقات الداخلية ، أنظر مهدي رزق الله أحمد: حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية،ط١ ،١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م ، ص٥٢٨.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ،ص ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق : ص ٣٠٨ .

(٣) Triminghaam J.s :Islam in west Africa ,p٩٧.

Levtzion,N:op,cit,p ٨٨.

ولذلك وضعت شروط ومواصفات صعبة لاختيار الكاتب حددها ابن خلدون[١] بأن يختار "من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ...والقيام على الآداب والتخلق بالفضائل ...وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها ".

وقد عرفت خطة الكتابة في مملكة مالي حيث كان الكاتب يساعد الفاريا[٢] وينفذ أوامره، وكانت مهمة الفاريا تتلخص في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية ، ويساعده في عمله كاتب ينفذ أوامره . وحسبما يظهر من كلام ابن بطوطة فإن هذا الكاتب غالبا ما يكون فقيها عارفا بشئون الإنشاء وقواعد الشريعة الإسلامية[٣].

ومن المؤسف أن المصادر لم تحفظ لنا سوى اسما واحدا ممن تولى خطة الكتابة في دوله مالي وهو كاتب منسا موسى[٤] الذي رحل إلى فاس لتعلم العلم بأمر من السلطان منسا موسى سلطان دولة مالي الإسلامية[٥].

كما لم تذكر لنا كتب المصادر سوى ثلاثة أسماء من كتاب دولة صُنغى ، أولهم الكاتب إبراهيم الخضر[٦] وكان في عهد سني على الذي رتبه كاتبا لديه إلى اليوم

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩.

(٢) الفاريا :هو نائب عن الملك في الإقليم الذي كانت مهمته تتلخص في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية ، فمثلا فريا سليمان الذى قابله ابن بطوطة ولقى عنده فقيهاً كاتباً يكتب له ، وهو الذي كتب له ما يريد وعرضه على فريا سليمان وهو بالقرب من مدينة تنبكت ، أنظر ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٦.

(٣) المصدر السابق ،ص ٦٧٧.

(٤) هو : الإمام سيدي أحمد كان رحمه الله عالما عادلا رحل من أرضه إلى فاس للتعليم في دولة أهل مالي بأمر السلطان الحاج كنك موسى أنظر ،الأروانى : السعادة الأبدية، ص ١٢٣.

(٥) السعدي :تاريخ السودان ، ص٥٧.

(٦) إبراهيم الخضر وهو فاسى جاء لتنبكت وسكن فيه في حومة الجامع الكبير ، في زمن سني على، أنظر السعدي : تاريخ السودان ، ص٦٨.

الذي أنقلب عليه وأمر سني على بقتله وأخذ جميع أمواله فنفذ أمره ولكن الخدام أخفوه عن أعين سني على ولم ينفذوا أمره إلى أن جاء اليوم الذي احتاجه فيه سني على حيث جاءت له رسالة ولم يكن عنده قارئ ليقوم بقراءة ما فيها فقال سني على . " إن كان إبراهيم حيا لم نتوحل في هذا الكتاب " فقالوا له إنه موجود وهو حي أخرناه فأمر بإحضاره فقرأ الكتاب ورده إلي خطته وأعطاه ضعف ما ضاع له من المال وظل في خطة الكتابة بعد وفاة سني علي و مجئ عهد أسكيا الحاج محمد الكبير الذي أبقاه في مقامه عزيزا مكرما إلى أن توفى فخلفه ابنه حوي الذي كان كاتبا لناظر أسكيا في تنبكت وكان في رتبة وقدر عظيم[١] .

ثم ذكرت المصادر الكاتب على بن عبد الله بن عبد الجبار اليمنى و الذي كان يعمل كاتبا لدى الاسكيا الحاج محمد الكبير[٢] ، وأشهده الأسكيا محمد الكبير على كتابة وثيقة عدم التعرض للشريف أحمد الصقلي هو ورهطه الذين جاءوا معه بالإضافة إلي ذريتهم في شئ من أمور السلطنة كما لهم الشفاعة في كل شئ إلا النفس التي حرم الله[٣] .

كما أمر الأسكيا الحاج محمد الكبير كاتبه عبد الله بن على بكتابة وثيقة حفدة الشيخ مورهوكار[٤] الذين اشتكوا للأسكيا الحاج محمد البؤس والشدة التي عاملهم بها سني على . فأمر الأسكيا محمد كاتبه أن يكتب لهم وثيقة الحرمة التي يسيرون بها في البلاد ليحموا بها أعراضهم وأشهد عليها كاتبه هذا ، وكذلك القاضي إسماعيل

---

(١) المصدر السابق ، والصفحة .

(٢) محمود كعت : الفتاش ، ص ١٥، ٧٤.

(٣) المصدر السابق : ص ١٨ ، ١٩ .وأنظر نص الوثيقة في الملاحق .

(٤) وهم مور الصادق ،مور حبيب ،مور محمد أنظر المصدر السابق ،ص ٧٢.

بن محمود كعت[١] وكان هذا الكاتب من صاحبوا الأسكيا الحاج محمد في رحلة حجه[٢].

كما ذكرت لنا المصادر الكاتب الفقيه بكر الأنبارى[٣] الذي تولى خطة الكتابة على عهد الأسكيا داوود وهو الذي قام بكتابة وثيقة العتق لأولاد وأحفاد السيدة العجوز التي جاءت للأسكيا داوود لحاجة لها عنده[٤]. كما قام هذا الفقيه بتبليغ الاسكيا داوود رسالة القاضي محمود كعت الذي طلب منه أن يعينه على متطلبات فرح أبنائه الذكور والإناث[٥]. كما كان الفقيه بكر الأنبارى ممن كتب وشهد على إعطاء الدية لابن القاسم بن مزاور الشريف الونكرى لقتل الأسكيا داوود أخيه عن طريق الخطأ[٦]. هذا بالنسبة لخطة الكتابة التي تولاها عدد من فقهاء المالكية في دولة مالي الإسلامية وكذلك دولة صنغى الإسلامية.

---

(١) المصدر السابق : ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥.

(٢) المصدر السابق : ص ١٦.

(٣) هو الفقيه بكر الانبارى وكان يلقب بأسكي الفع بكر لنبار ، أنظر ، المصدر السابق ،ص ١٤٧.

(٤) "جاءت هذه العجوز إلى الاسكيا داوود وطلبت منه أن لا يفرق بين أولادها وأحفادها وأسباطها البالغ عددهم سبعة وعشرين أذا باعهم أو وهبهم أن يكونوا لشخص واحد حتى لا يتفرقوا فأجابها بأنه أعتقهم شكرا لله ثم قالت له أريد منك أن تكتب لهم وثيقة بشهادة هؤلاء الجلساء الصالحين خوف دوران الزمان وانقلاب الأحوال وتغير الأمور ونادي على كاتبه ليكتب لهم وثيقة عتقهم وهو الذي أستنطق الأمة العجوز بأن تذكر أسماء أولادها فكتبتهم في ذلك المجلس بشهادته وشهادة من حضر " ،أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٠٣ ، ١٠٤.

(٥) محمود كعت : الفتاش ، ص ١٠٨.

(٦) وكانت هذه الدية عن قتل أخي الشريف أبن القاسم مزاور وكانت عبارة عن أراضٍ في ثلاثة أماكن وكل مكان كان يساوى مائتى نفس ، لأنة لم يستطع أن يستغفر لهذا الذنب بسفرة للحج والاستشفاع برسول الله ﷺ،أنظر محمود كعت : الفتاش ، ص١١٦ ، ١١٧ .

وإذا كانت المصادر لم تقدم لنا إلا عددا قليلا من فقهاء المالكية في دولة مالي الإسلامية وكذلك دولة صُنغى الإسلامية ممن تولوا خطة الكتابة فإن هذه المصادر قد أمدتنا بمعلومات وافية عمن تولي خطة الفتيا والقضاء في هاتين الدولتين .

ب ـ خطة القضاء و الفتيا:

يعد منصب الإفتاء والقضاء من أشرف وأجل المناصب ، وكان رسول الله ﷺ أول من تولى منصب الإفتاء والقضاء في أمته ، ثم جاء من بعده الصحابة والتابعون ، ثم أئمة المسلمين وفقهاؤهم . وكان المفتون والقضاة محل تقدير وتبجيل بفضل مهمتهم الجسيمة في تبليغ الأحكام الشرعية ،[١] ولذلك أجمع العلماء على أن الفقيه لايتبوأ خطة الإفتاء أو خطة القضاء إلا إذا توفرت له شروط ومؤهلات معينة[٢] . ومن أهم هذه الشروط هي تلك التي تتعلق بالجانب العلمي ، حيث يجب أن يكون عالماً لأن المطلوب منه أن يبين الحق وهو الحكم الشرعي المتعلق بالعبادة أو المعاملة[٣]

---

(١) وكان الإمام مالك يكره التسرع في الفتوى ونقلت عنه أخبار كثيرة في هذا المجال ، منها قوله :" جنة العالم لاأدرى فإذا أخطأها أصيبت مقاتله "وقوله : "من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه في الآخرة ثم يجيب "أنظر فتاوى الشاطبى ص٨٠ ، يرى الشاطبى : (أبو إسحاق بن موسى بن محمد اللخمى الشهير بالشاطبى المتوفى عام (٧٩٠هـ، ١٣٨٨م) سوهو من كبار الفقهاء المجتهدين ، كان شديدا على أهل البدع ، أنظر،أحمد بابا :كفاية المحتاج، جـ١، ص٩١.

(٢) قال الإمام مالك : (لا ينبغي للعالم أن يفتى حتى يراه الناس أهلا لذلك ، ويرى هو نفسه أهلا لذلك) ، أنظر القرافى :الفروق ، مطبعة دار المعرفة بيروت ، جـ٢ ، ص١١٠ .

(٣)ويشمل هذا الشرط :

أ ـ معرفته بكتاب الله عز وجل (بناسخة ومنسوخه،ومحكمه ومتشابهه،وتأويله ،وتنزيله،ومكيه ومدنيه ،وما أريد به) أنظر ،ابن القيم الجوزية : أعلام الموقعين ، جـ١ ، ص٣٥،

ب ـ وكذلك معرفته بسنة رسول الله ﷺ بحيث يعرف من الحديث < مثل ما عرف من القرآن >أنظر نفس المرجع والصفحة

وكذلك اهتم العلماء ببعض الشروط الأخلاقية إلى جانب الشروط العلمية لمن يتولى خطة الفتيا أو القضاء حيث نجدهم يلحون على عدالة من يتولى مهمة الإفتاء والقضاء[١] . وإن كانت الشروط المتعلقة بالجانب العلمي وبالجانب الإخلاقي متوفرة و موجودة فهي غير كافية لقيام الفقيه (المفتى والقاضي) بواجبه على أحسن وجه ما لم تكن له قريحة[٢] وما لم يمتلك ملكة الإفتاء والقضاء والتمكن من التصرف في مخزونه المعرفي فيحسن تطبيق ما يعرفه من كليات علم الفقه على جزئيات الوقائع التي تعرض عليه ، وهو أمر عسير على كثير من الناس[٣] وهذا لا يكتسب إلا بالدراية والتجربة . كما يجب أن يكون الفقيه (المفتى ـ القاضي)على دراية واطلاع على كتب الفتاوى والنوازل ليعرف من خلالها كيفية تطبيق الأحكام على

ج ـ معرفته باللغة العربية وعلومها ، ومعرفته كذلك بالفقه وأصوله <وذلك يكون محكما لأبواب الفقه ، مستحضرا لنصوص المذهب الذي يفتى به) مع التميز بين العام والخاص ، والمطلق والمقيد ،عارفا باصطلاحات العلماء .ويكون متقنا لقواعد الأصول إتقانا يمكنه من تنزيل الإحكام على القضايا ، وإدراج الجزئيات تحت الكليات .

د ـ وكذلك تكون معرفته بأحوال الناس ، حتى يكون عارفا بظروف المجتمع ، مطلعا على عادات الناس وأعرفهم وحيلهم ومكايدهم(فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال) ،أنظر ابن القيم الجوزية :مصدر سابق ، ص٣٥ ، ٣٦.

(١) كما رواه أبو داود الطيالسى من حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكر عندها القضاة فقالت :سمعت رسول الله ﷺ يقول : "يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين أثنين في تمرة قط" أبن القيم الجوزية : مصدر سابق ،ص٣٦.

(٢) ابن الجوزية :مرجع سابق ، جـ١ ، ص١٠ . ، ومما يدل على كمال الفقيه (المفتى والقاضي) العدول عما سئل عنة إلى ما هو أنفع للمستفتى في دينه مع بيان المسؤل عنه ،وإجابة السائل بأكثر مما سأل عنه ،وإذا كان الجواب يقتضى منع المستفتى من شيء تدعوه الحاجة إليه فعلى المفتى أن يدله على عوض وبديل له ليفتح له الباب المتاح ،والإفتاء بلفظ النص وتعزيز الحكم الذي يفتيه بحجته ودليلة ، أنظر ابن الجوزيه : أعلام الموقعين ، مرجع سابق ،جـ٤ ، ص١٧٢ ، ص٢٦٠.

(٣) الشاطبى : فتاوى الشاطبى ، ص٧٥.

القضايا الجزئية[١] ويضاف إلى ذلك صفات يجب أن يتصف بها الفقيه (المفتى ـ القاضي) كالرصانة والتثبت في الإفتاء والإحكام[٢].

هذا ولم يكن عند أهل السودان الغربي قانون مدون قبل الإسلام يحدد نظام الإفتاء والقضاء، بل كانوا يتحاكمون بما توارثوه عن أسلافهم من أساطير وتقاليد وأعراف منتشرة بينهم، وكانت هذه التقاليد والأعراف عندهم بمثابة قوانين ثابتة لايجوز مخالفتها وكان الإفتاء والقضاء مبنيين على تلك التقاليد والعادات المحلية ،وكان نظام الإفتاء والقضاء عندهم عن طريق الملك وكاهن المعبد فهو يستفتيه في الأمور ويقوم هو(الملك) بتنفيذ ذلك الأمر لأنه هوا لذي يملك سلطة التنفيذ[٣].

ومنذ أن كرم الله أهل هذه البلاد وسخر لها همم المؤمنين لنشر دينه الحنيف بين ربوعها كان أهلها وحكامها يسألون ذوى العلم من الفقهاء عن أمور دينهم ، ويستفتونهم حول تحكم ما ينزل بهم في حياتهم من أحداث ووقائع[٤] وكان هؤلاء

(١) محمد بن الحسن الحجوى : الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي مطبعة المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧م ،، جـ٤ ، ص٤٢٨ .

(٢) رواه الدرامي في سننه ، في باب الفتيا وما فيه من الشدة ، ونصه : "أخبرنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن أبى أيوب ، عن عبيد بن أبى جعفر قال: رسول الله ﷺ "أجرأكم على الفتيا أجرأكم على النار"أنظر سنن الدرامي جـ١ ، ص٥٧ ، دار إحياء السنة النبوية.

(٣) "بعد عودة الأسكيا محمد من الحج في عام(٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) أراد أن يغزو بلاد الموش التي ظلت على وثنيتها وعلى عاداتها وأعرافها الوثنية القديمة ، فأرسل إليهم رسولاً يعرض عليهم الدخول في الإسلام ، فأجابه كبيرهم بأنه لا يستطيع الجواب قبل استشارة كاهن المعابد ، فنودي على هذا الكاهن الذي ذهب إلى كبير الأصنام يستطلع رايه بحضور رسول الأسكيا وملك الموسى ، وقد كان الجواب الذي أستطلعه الكاهن الكبير من كبير الآلهة ، أن على ملك الموسى أن لا يفرط في عبادة الأجداد) "ولهذا رفض الملك طلب الأسكيا بالدخول في الإسلام ، وهذا يظهر أن السودانيين قبل اعتناق الإسلام ، كانوا يستشيرون ويستفتون رأى الكهنة في كل ما يقدمون عليه. السعدي : مصدر سابق ، ص٧٤، وكذلك أنظر عبد القادر زبادية : أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلى ، ص١٧٠ .

(٤) أنظر السؤال الأول من أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلى عليها :عبد القادر زبادية ، الحضارة العربية

الفقهاء (المفتون والقضاة) يقومون بالرد عليهم من خلال مصادر التشريع الإسلامي وخاصة كتب الفقه المالكي المعتمدة في الإفتاء والقضاء[١] .

ويعد منصب القضاء من أهم المناصب التي تولاها فقهاء المالكية في دولتي مالي وُصنغي ، وكان من أشهر قضاة دولة مالي الإسلامية القاضي أبو عباس الدكالى الذي شغل خطة القضاء بعاصمة مالي أيام السلطان منسا موسى ، وكان هذا الفقيه قد أقام بمملكة مالي مدة طويلة وكان يشغل خطة القضاء بعاصمة مالي. كما تولى خطة القضاء الفقيه القاضي كاتب موسى الذي أرسله السلطان منسا موسى إلى فاس للأخذ عن فقهائها فعاد شعلة من العلم وتقلد منصب القضاء بتنبكت ، والفقيه القاضي محمد الكابرى الذي توطن مدينة تنبكت وتولى القضاء بها و توفى بها ، وتقلد أيضا الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن وانسول خطة القضاء في مدينة كوكو ، كما كان الفقيه القاضي عبد الرحمن قاضيا في نيانى العاصمة أيام منسا سليمان[٢] . وفي أواخر دولة مالي تولي الفقيه المفتى الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبى بكر بن الحاج[٣] خطة القضاء بتنبكت وهو أول من أفتى وأمر الناس بقراءة

والتأثير الاوروبى في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء ،دراسات ونصوص ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ١٩٨٩م، ص ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.

(١) ومنعوا الفتوى من الكتب الغريبة التي لم تشتهر حتى يعلم صحة ما فيها، وكذلك الكتب الحديثة التصنيف التي لم يتم تحقيق نقولها عن الكتب المشهورة ،أنظر السيوطي : الحاوي للفتاوى ، جـ١، ص٣٤٠.

(٢) هو من السودان ، كان قاضيا في نيانى العاصمة أيام منسا سليمان ، لفيه ابن بطوطة وأثنى علية كثيرا ، أنظر ، ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٧٤.

(٣) هو:الفقيه القاضي :"عبد الرحمن بن أبى بكر بن الحاج "ومن نسل هذا الفقيه القاضي علماء آخرون تولوا مناصب القضاء والتعليم في مناطق أخرى من مدن السودان الغربي من قبل أسكيا الحاج محمد ، السعدي : تاريخ السودان ، ص ٢٨، البرتلى : فتح الشكور، ص٨٨ ، ٨٩.،الاروانى : السعادة الأبدية، ص٨٢.

نصف حزب من القرآن للتعليم في مسجد سنكرى بعد صلاة العصر وصلاة العشاء

وهذا يدل علي أن القضاة في دولة مالي كان أغلبهم من المغاربة ، والقليل منهم كان من أهل تلك البلاد ، وهذا عكس الحال في دولة صُنغي ، حيث وصل إلى منصب القضاة العديد من أهل تلك البلاد ، إذ أن خطة الإفتاء والقضاء كمنصب رسمي لم تظهر وتبلغ ذروتها في التنظيم إلا في عهد دولة صُنغى الإسلامية ، حيث أصبح الفقيه (المفتى،القاضي) له سلطاته الواسعة ، بالإضافة إلي استقلاله في قضاياه[١] .

وقد قام بتنظيم خطة القضاء والإفتاء أسكيا الحاج محمد اقتباسا من المشرق أثناء رحلة حجه الشهيرة عام(٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) . وفي إطار التنظيمات المهمة التي قام بها في السلك القضائي ، حيث نصب في مدينة تنبكت وفى كل مدينة تستحق القضاء قاضيا[٢] ، وكان هو الذي يولى منصب قاضى القضاة أو قاضى مدينة تنبكت ومدينة جني ، وهم بذلك تابعون للسلطة المدنية ، أما قضاة الأقاليم فيوليهم قاضى القضاة[٣] ولذلك كان قاضى مدينة تنبكت يتمتع بمكانة عالية ، ويعتبر قاضيها من أكبر القضاة ، وله مكانة وحرمة خاصة . وعلي الرغم من تبعية هؤلاء القضاة للسلطة المدنية إلا أنهم في أحكامهم التي يصدرونها مستقلون تمام الاستقلال عن أي اعتبار خارج نطاق الأحكام الشرعية المستمدة من روح الإسلام وحده ووفق

---

(١) محمد الغربي : مرجع سابق ، ص٣٩٣.

(٢) كان أسكيا الحاج محمد الكبير هو أول من ولى القضاء في مدينة جني عام (٠٤ هـ/ ١٤٩٨م) إذ إنه في السابق لم يكن الشرع مطبقاً عند الفصل بين الناس في خصوماتهم وقضاياهم ، بل كانوا يحتكمون إلى خطيب المسجد الجامع الذي يسعى بينهم بالصلح ، السعدي :تاريخ السودان ص١٨ .

(٣) قاضى القضاة هو قاضى مدينة تنبكت بعد مشاورة السلطان واتفاق أهل البلد على هذه الولاية السعدي : مصدر سابق ،ص ٧٥، ٧٦.

مذهب الإمام مالك[١] ، ولذلك كانوا حريصين في اختيارهم على أن يكونوا من الفقهاء البارزين في العلم و المتضلعين في الفقه المالكي ، متمتعين بالورع والصلاح والزهد[٢].

ولم يكن أحد يتقلد منصب الإفتاء أو القضاء إلا إذا كان أهلا له خوفا من الله، وخشية من خطورة تلك المسؤولية أمام الله ، وحتى أن كان أهلا لهذا المنصب فإنه كان يرفضه تورعا أيضا[٣] لذلك كان الفقهاء يتهربون من تولى منصب الإفتاء والقضاء ولا يتولونه إلابعد إلحاح شديد من الأسكيا[٤].وكان بعض فقهاء السودان الغربي قد تهربوا من تولى منصب خطة القضاء ، ونرى ذلك بوضوح بعد وفاة القاضي العادل العاقب عام(٩٩١هـ/ ١٥٨٣م)[٥] في مدينة تنبكت ، وظل المنصب شاغراً لمدة عام ونصف العام[٦] وما تولاها أحد لان أسكيا أرسل في طلب الفقيه

---

(١) وقد أتسم تعاملهم مع المذهب بالسمات الآتية :

أ ـ التزام نصوص المذهب وعدم الخروج عنها إلى غيرها إلا ما كان على سبيل الاستثناء عند من تهيأت لهم متانة العلم وسعة الأفق من المفتين .

ب ـ الإفتاء والقضاء بالقول المشهور في المذهب ، وعدم الخروج عنه إلا فيما ندر

ج ـ طغيان طابع التقليد في الإفتاء والقضاء وندرة طابع الاجتهاد ،أنظر الفكر السامي :جـ٤ ،ص٣١٨.

(٢) levtzion .N : op,cit,p٩٩.

(٣) ابن القيم الجوزية : مصدر سابق ،جـ١ ، ص٣٦.

(٤) كان بعض أئمة المذهب المالكي قد بالغوا في التحذير من الدخول في ولاية القضاء وشددوا في كراهية السعي فيها ورغبوا في الإعراض عنها والهرب منها "حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء و الصلحاء أن من ولى القضاء فقد سهل علية دينه وألقى بيده إلى التهلكة ، ورغب عما هو الأفضل " أنظر ابن فرحون : تبصره الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، ص ١٢.

(٥) هو : " العاقب بن محمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن على بن يحيى التنبكتى قاضى تنبكت (٩١٣ـ٩٩١هـ/ ١٥٠٧ـ١٥٨٣م)، أنظر أحمد بابا :نيل الابتهاج ، ،ص ٣٥٣، ٣٥٤ ، محمد مخلوف: شجرة النور ص ٤١٤.

(٦) تعطل القضاء في تنبكت سنة وخمسة أشهر وقام الإمام محمد بغيع بالصلح بين الناس دفعا لما بدا بين الناس في ذلك الزمان من الخسارة وأكل بعضهم أموال بعض وضياع أموال الأيتام ، وكان إذا صلى

أبى حفص عمر بن الفقيه محمد المتوفى عام (١٠٠٦هـ/ ١٥٩٧م) ليتولي هذه الخطة أكثر من مرة ولم يقبلها الفقيه حتى أرسل له أسكيا رسولاً من عنده ليبلغه أنه اذا لم يقبلها سيوليها لجاهل ، وكل ما يحكم به هذا الجاهل يُسأل عنه أمام الله تعالى، وعندما وصل هذا الرسول إلى الفقيه عمر وأبلغه رسالة الأسكيا قبل خطة القضاء وهو يبكى وكان هذا في عام(٩٩٣هـ/ ١٥٨٥م)[1].

وهناك واقعه أخري تدل علي تهرب فقهاء المالكية من ممارسة خطة القضاء ، وعلي حرص وحب الاسكيا محمد للفقهاء ومتابعته لهم لكل ما يتعرضون إليه من مضايقات ومن ذلك ، عندما قام الفقيه القاضي محمود بن عمر بقضاء فريضة الحج وترك القضاء من بعده للقاضي عبد الرحمن ، ثم عاد ومكث في تنبكت سنتين والقاضي عبد الرحمن يقضى ومارد القضاء للقاضي محمود الذي استنابه ، والقاضي محمود ساكت ولم يتعرض له إلى أن وقعت نازلة في مجلس القاضي عبد الرحمن وحكم فيها بما حكم به ، وسمع بذلك الفقيه القاضي محمود وأرسل إليه ينقض هذا الحكم لمخالفته بنص الكتاب والسنة والإجماع فأبى إلا إنفاذه، وسكت الشيخ فبلغ الخبر أسكيا محمد الذي أرسل رسله ليردوا الحكم للقاضي محمود ويعزلوا عبد الرحمن ، وجاء الرسول وأجتمع علماء تنبكت و فقهاؤها في جامع سيدي يحيى ونادوا القاضي بأمر أسكيا فحضر وقال له الرسل : أسكيا يأمرك بأن تسلم الأمر للقاضي محمود لأنك نائبه ، وإذا حضر المنيب فالنائب معزول ، ثم عزلوه وأتوا القاضي محمود بأمر أسكيا بأن يرجع إلى مكانه ويتولى القضاء فأبى وامتنع وألحوا

الصبح يجلس بباب مسجد سيدي يحيى ويحضر بعض طلبته ويقول رحمه الله من له حق على من أمتنع به فليأت فجعل الناس يأتونه بدعواهم وليحكم بينهم فيأمر وينهى ويسجن ويضرب من يستحق الضرب ، أنظر محمود كعت: الفتاش ، ص ١٢٤، ١٢٥.

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص١٢٤ ، السعدي : مصدر سابق ، ص١١٨ ،البرتلى : فتح الشكور ، ص١٧٨ .عندما سمع بأمر الاسكيا بتوليتة القضاء خرج هاربا إلى بعض القرى من بلاد أترم ، ثم رجع كامنا حتى ظفروا به.

عليه ، فلما سمع أسكيا برفضه و امتناعه، أرسل إليه كبراء قومه فلم يقبل الإ بعد ما غلبوه بالحجج[١] .

ويبين أيضا تهرب الفقهاء من خطة القضاء والإفتاء ما حدث مع الفقيه محمود بغيع[٢] المتوفى عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٢م) والذي أرسل أسكيا إسحاق أحد أعيانه من الجيش ليقدمه قاضيا أحب ذلك أم كره ، فأتى رسول الأسكيا وجمع أهل جني وفقهاءها وسلطانها ، كما أحضروا الفقيه محمود بغيغ وهو لا يعلم لماذا حضر؟ فأخذوه وأمسكوا به وألبسوه قميص أسكيا الذي أرسله إليه في عنقه في عام (٩٥٩هـ/ ١٥٥١م) ، وعندما عرف الفقيه محمود أمر توليه خطة القضاء ظل يصرخ ويبكى بكاء الصبي وقدموه جبرا وقرأوا عليه كتاب أسكيا، وبأمره أعطوه فرسا. وحملوه إلى داره ، فلما دخل بيته استقبلته زوجته وقالت له لم رضيت القضاء فقال : لم أرض بذلك ! وإنما أجبروني به وكلفوني ، فقالت :" لو اخترت الموت عليه لكان أحسن منه "[٣] .

ومن ذلك أيضا عندما طلب أسكيا داوود من الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر المتوفى عام (٩٧٦ هـ/ ١٥٦٨م) أن يقنع كل من الفقيه محمد بغيغ وأخيه الفقيه أحمد بغيع المتوفى عام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) أن يتولى أحدهما قضاء مدينة جني وتوابعها ، وطلب أسكيا داوود من العلماء والأعيان في مدينتي جاو و تنبكت محاولة إقناعهما، ولكنهما أصرا على رفض تولى خطة القضاء . فلما زاد الإلحاح عليهما وتشفع فيهما الناس فأبى أسكيا وتشدد في ذلك حتى هربا ولجأ إلى

---

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص٧٥، ص٧٦ . ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٧٦.

(٢) هو محمد بن محمود بن أبى بكر الو نكرى التنبكتى عرف "ببغيغ(٩٣٠-١٠٠٢هـ/ ١٥٢٣-١٥٩٣م) أنظر أحمد بابا : نيل الابتهاج ،ص ٦٠٠، ٦٠١ ، ٦٠٢.كان الفقيه محمود بغيغ يفصل (يفتى)بين المولدين والمسافرين ، السعدي :تاريخ السودان ،ص١١٨، البرتلى : فتح الشكور ص١١٣.

(٣) محمود كعت :الفتاش ص١١٥، البرتلى : فتح الشكور،ص٢٨.

المسجد الجامع وأقاما فيه شهورا وأثناء ذلك كان يأتيهما رسول اسكيا يوميا فلما رأى إصرارهما على الرفض سكت عنهما)[١].

وتكرر رفض الفقهاء لخطة القضاء ، ففي عهد أسكيا إسحاق عندما عرض هذا السلطان خطة القضاء على الفقيه عثمان درم ليتولى هذا الأمر على بلده تندرم ، ولكن الفقيه عثمان رفض هذا المنصب ولم يقبله إلا قهرا بعد مناقشات ومد وجزر[٢] .وبعد موافقة الفقيه على تولى خطة القضاء، يتم تنصيبه عقب صلاة من الصلوات الخمس في المسجد الجامع على مرأى من الناس بحضور الملك في ذلك اليوم المشهود ، ويأتي الفقيه الذي يريد الملك تنصيبه لخطة القضاء فيقلده هذا المنصب[٣].

ويحلف الفقيه أمام الملك بالله أو باسم من أسمائه الحسنى أنه سيلتزم في أحكامه بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ وخلفائه من بعده ، واجتهادات أئمة العلم من بعده ، وأنه لا يخاف في الله لومه لائم[٤] ثم يقول الفقيه :"القوى عندي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، وكذلك الضعيف عندي قوى حتى يستوفى له حقه " وعقب الحلف يقلده الملك خطة القضاء[٥].

وكان يعاون القاضي في أداء عمله العديد من فقهاء المالكية منهم من كان يتولي وظيفة متولي الشرع ، وهى حصر التركة بعد موت أي شخص له أملاك،وكذلك كان هناك وظيفة شهود القاضي وهم من الفقهاء الذين يوقعون مع القاضي على الوثائق كوثائق الصلح الذي يعقد بين الجماعات السياسية المتخاصمة . كما كان

---

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠.

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) ما حدث مع الفقيه محمود بغيغ ، محمود كعت : الفتاش، ص٩٠.

(٤) أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، صر ١٢٤، ١٢٥.

(٥) أبو بكر إسماعيل ميقا :مرجع سابق ، ص٢٨٠.

للفقيه القاضي أعوان يرسلهم للسلطة إذا لزم الأمر ويقومون كذلك بإيصال رغباته وأحكامه وفتاويه إلى السلطان إذا لزم الأمر[١].

كما كان هؤلاء القضاة يقومون بمراعاة المساكين وتولى الأحوال المدنية مثل تسجيل المحررين من العبيد ، والنظر في تقسيم التركات والميراث كما كان من مهام القاضي الإشراف على العملية التعليمية ، فكانوا يعينون المدرسين ويساعدون المحتاجين من الطلاب، كما كانوا يقومون بإيواء الطلاب وتوزيع الجراية عليهم وعلى أساتذتهم[٢].

كما كان من مهامهم تعيين إمام الجامع الكبير في تنبكت ، فقد كان تعيين الإمام يتم على يد القاضي[٣]. وكان من مهام القاضي القيام ببناء المساجد وتوسعة القائم منها للدراسة والصلاة حسبما يراه من حاجة المنطقة إلى ذلك بمساعدة من الملك والمحسنين .كما فعل الفقيه القاضي العاقب بن محمد أقيت[٤] وكان له دور فاعل واضح في هذا المجال(٥) فقد قام بتجديد مسجد محمد نض في الفترة مابين(٩٧٦-٩٧٧هـ/ ١٥٦٧-١٥٦٨م)[٦] و كذلك تجديد بناء المسجد الذي في سوق تنبكت عام (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م).

---

(١) السعدي : مصدر سابق ،ص٢٧٦.

(٢) سيسكو : مرجع سابق ،ص٢١٣. ، عبد القادر زبادية : مرجع سابق ص٧٧،٧٤.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص٦٠.

(٤) نفس المصدر : ص١٧١،١٧٠

levtzion N,op,cit,٩٦.

(٥) تذكر المصادر أن الفقيه القاضي العاقب قد أنفق من ماله الخاص في بناء هذه المساجد مالا لا يعرف نهايته إلا الله، أنظر محمود كعت :الفتاش ، ص١٢٢.

(٦) سوزى أباظة : عائلة أقيت وإسهاماتها الثقافية في تنبكت ،مجلة الدراسات الإفريقية،العدد٢٦، ٢٠٠٤ م، ص١٦٨

. levtzion,N : op,cit,p ١٣٦.

كما قام الفقيه القاضي العاقب في عام(٩٨٥هـ/.١٥٧٧م) بتوسيع الجامع الكبير[١] بالطوب اللبن ، وسّوى المقابر القديمة وزادها على المساحة الأصلية للجامع القديم بعد عودته من رحلة حجه . وفى عام(٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) قام بحركة تجديد وتوسيع في مسجد سنكرى[٢] على غرار مساحة الكعبة بعد أن أخذ مقاس مساحتها من حيث الطول والعرض ، فأستكمل بناء هذا المسجد على غرار مساحة الكعبة وما زاد وما نقص[٣] عليها في شي[١] ، وفى عام(٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م) ابتدأ

---

(١) يقال إن القاضي العاقب محمود بن محمد هو الذي بناه وأنفق على تجديده ،أنظر محمود كعت :الفتاش ،مصدر سابق ، ص١٢١،ص١٢٢، وكذلك السعدي : تاريخ السودان ، ص١٠٩، ١١٠، وهو الآن معدوم ومجهول الموضع ، أنظر السعادة الأبدية، ص٧٤.

(٢) السعدي :تاريخ السودان ،مصدر سابق ،ص١٠٩ ، سنكري : كلمة صنغاوية مركبة من : صن ، ويعني المعلم ، وكري : يعني الأبيض ، أي المعلم الأبيض ، ماهر عطية شعبان : جامعة سنكري فى تنبكتو ودورها الحضاري والثقافي في القرن السادس عشر ١٤٩٢/ ١٥٩٠م ، مجلة الدراسات الافريقية ، العدد ٢٤، ٢٠٠٢م ، ص ٩٠، ٩١. انظر : S . Alpha :Les Familles latuna de Sonkore Cherif , p : ٣٠ , revue Sonkore N ٤ , ١٩٩٣ , Etude sur L'islam au Soudan , p : ٦٢.

(٣) يقول السعدي عن بناء مسجد سنكري: " فقد بنته امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثير في أعمال البرّ ، ولكن لم نجد لبناته تاريخاً... . ثم جدده القاضي العاقب نهاية القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، يقول السعدي في إشارة إلى ذلك: "... وفي يوم الخميس الثاني عشر من المحرم سنة ست وثمانين بعد تسعمائة ، وفي عهد الملك أسكيا داود تم توسيعه وإكمال ما تبقى من بنائه ، وذلك نظرا لازدياد الطلاب الوافدين إليه بكثرة ، واتساع حلقات العلم فيه ، فنال شهرة ضاهت شهرة بعض أبرز الجامعات الكبرى في العالم الإسلامي في تلك الحقبة بل في العالم أجمع ..أنظر السعدي:تاريخ السودان ،مصدر سابق ،ص١١١

Ali Ould Sidi :Monuments and Traditional Know-how: the Example of Mosques in Timbuktu, ISSN ١٣٥٠-٠٧٧٥, No. ٢٢٩-٢٣٠ (Vol. ٥٨, No. ١-٢, ٢٠٠٦) UNESCO ٢٠٠٦ ٤٩Published by Blackwell Publishing, ٩٦٠٠ Garsington Road, Oxford, OX٤ ٢DQ (UK) and ٣٥٠ Main Street, Malden, MA ٠٢١٤٨ (USA), p٥١.

الفقيه القاضي العاقب بتجديد وتوسيع مسجد سيدي يحيى[٢] وانتهي من تلك التجديدات والتوسعات عام(٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)[٣] كما قام ببناء مسجد الهنا (٩٩٤هـ/ ١٥٨٥م)[٤].

ويعد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد أندغ محمد[٥] أشهر من تولى خطة القضاء في دولةُصنغى الإسلامية ، والفقيه عبد الله بن الفقيه أحمد برى[٦] والذي كان مفتيا

---

(١) أنه لما حج وأراد الانصراف والقفول إلى تنبكت ،أستأذن خدم الكعبة أن يحد الكعبة ويكيله بقدمه طولا وعرضا فأذنوا له وكالة بالحبل طولا وعرضا ، وجاء بالحبل المكيل ،فلما أراد بناء وتجديد مسجد سنكرى أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرضة التي أراد بناءها فيه على الأوتاد على جهاتها الأربع وبني عليها وهو على مقدار الكعبة،مازا د ت وما نقصت عليها بشي ،أنظر ،محمود كعت :الفتاش ، ص١٢١.

(٢) شيد هذا المسجد محمد نض ،من قبيلة أجر الصنهاجية ،وحاكم تنبكت من قبل سلطان الطوارق آنذاك السلطان أكل ،أنظر السعدي ص٢٢،ومن المحتمل تشيده حوالي منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ،وعندما جاء إلية صاحبة وحبيبة الفقيه العالم سيدي يحيى التادلسى المتوفى عام "٨٦٦هـ/ ١٤٦١م " أكمل تشييد هذا المسجد،وعينة أماما فيه . Ali Ould Sidi ,op,cit, ٥٠

(٣) السعدي :تاريخ السودان ، ص١٠٨، ١٠٩.

(٤) الأروانى:السعادة الأبدية ، ص ٩١.

(٥) هو:الفقيه أبو عبد الله أندغ محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح معدن العلم والصلاح ومنة تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح منهم من جهة الإباء ومنهم من جهة الأمهات ومنهم من جهتيها معا .فهو عالم جليل قاضى المسلمين ، قال عنة أحمد بابا رحمه الله هو أول من خدم العلم من أجداده فيما أعلم وهو جد جدي لأمة أبو أم جدي(لفظ أندغم حمد من الألفاظ الدالة على التعظيم والتبجيل عند أهل غرب أفريقيا في ذلك الوقت .،أنظر السعدي : المصدر السابق ،ص٢٧، الاروانى : مصدر سابق ، ص٨٢،البرتلى : مصدر سابق ، ص١١٢ . أبو بكر ميقا :تاريخ التعليم في السودان الغربي ص١٩٤.

Lamse kABa , L:op,cit,p٢٤٤

(٦) عبد الله ابن الفقيه أحمد برى بن الفقيه أندغم حمد الكبير ، وهو من ذريته من جهة الأب والأم معا لان أمة أخت الفقيه أبى العباس أحمد بن أندغم حمد،أنظر البرتلى : مصدر سابق ، ص١٥٨ .الاروانى : مصدر سابق ،ص٨٦.

شرعيا في زمانه نابغا في علوم القرآن وتوثيق الأسانيد. أما شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر[١] والذي تولى القضاء عام (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) فشدد في الأمور وسدد وتوخي الحق في الأحكام و كان ذا ثبات عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وكذلك اشتهر علمه وصلاحه في البلاد ، وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء ونزاهته وكان لا يخاف في الله لومة لائم مع صلاح ودين ولذلك طار صيته في الأقطار شرقا وغربا[٢].

وتولى خطة القضاء بعد وفاة القاضي محمود ابنه محمد[٣] الذي تولى القضاء عام(٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م).وقد ساعده على النبوغ في خطة القضاء وغيرها أنه كان ذا فهم ثاقب وذهن صافٍ ، كما كان عالما جليلا ولم يكن له نظير في عمره في الفهم والدهاء ورجاحة العقل[٤] .

وكان أخوه القاضي العاقب بن محمود[٥] والذي كان مسدداً في أحكامه ، صلبا في الحق ثابتاً فيه لا تأخذه في الله لومة لائم قوى القلب في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره ، إذا رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابه ، ثم يلاطفونه حتى يرجع ، وقع له هذا مرارا.

---

(١) هو: "القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بن يحيى التنبكتي(٨٦٨ـ٩٥٥هـ/ ١٤٦٣ـ١٥٤٨م) أنظر أحمد بابا :نيل الابتهاج ص٣٥٣، والسعدي:تاريخ السودان ، ص٣٨ ، الاروانى : مصدر سابق ، ص٩٠.

(٢) محمد مخلوف :شجرة النور الزكية ، ص ٤٠٢.

(٣) هو القاضي :" محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت ٩٠٩ ـ٩٧٣هـ / ١٥٠٧ـ١٥٨٣م ،وهو أحد الإخوة الثلاثة أولاد الفقيه محمود بن عمر ،أنظر أحمد بابا :نيل الابتهاج ،ص ٥٩٧. الاروانى : السعادة الأبدية ص٩١.

(٤) أحمد بابا : مصدر سابق ، ص٥٧٩.

(٥) المصدر السابق ، ص٣٥٣، ٣٥٤،الاروانى : مصدر سابق ، ص٩١.،محمد مخلوف :شجرة النور ص٤١٤ . وقد سبق الحديث عنه في إصلاحات المساجد .

كما تولى أخوه القاضي عمر بن محمود القضاء في عام(٩٩٣ هـ / ١٥٨٥م). بعد رفضه لذلك المنصب ، وقد برع في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس ، وقد بلغ الغاية القصوى في الفقه حتى قال عنه بعض من معاصريه من الشيوخ إنه لو كان موجوداً في زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتيا فيها[١].كما تولي ابن هذا القاضي الفقيه عبد الرحمن بن عمر خطة الإفتاء ، وكان يقوم بعمله على أكمل وجه[٢].

وقد تولي خطة الإفتاء من فقهاء المالكية محمد بن أحمد بن محمد التازختى الذي كان مفتيا محصلاً جيد الحفظ ومتمتعاً بحسن الفهم[٣] ، و كذلك السيد أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الذي كان فقيها مفتيا[٤].

كما تولي منصب القضاء في مدينة جنى فقهاء المالكية ، منهم الفقيه محمد سانوا الونكرى[٥] الذي قدم إلى جني في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[٦]، ولعلمه وصلاحه تعدت شهرته مدينة جني حتى وصلت إلى مدينة تنبكت مركز الثقافة الإسلامية. فعندما زار القاضي الفقيه محمود بن عمر مدينة تنبكت في مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي التقى بهذا العالم الفقيه محمد سانوا ، فأعجب بعلمه وصلاحه ،فأثنى عليه للأسكيا الحاج محمد فولاه

---

(١) هو القاضي :" عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت المتوفى عام(١٠٠٣هـ ١٥٩٤م) وقد سبق الحديث عنه في تهرب الفقهاء من خطة القضاء .، أنظر ،البرتلى :فتح الشكور ، ص١٧٨ .

(٢) السعدي : تاريخ السودان ، ص٥٧، الاروانى :مصدر سابق ، ص٩٢.

(٣) البرتلى :فتح الشكور ،ص٦٣.

(٤) الاروانى :مصدر سابق ، ص٩٣.

(٥) هو : " الفقيه فودي محمد سانوا الو نكرى"وكان له أثار جلية في ازدهار الحياة العلمية في مدينة جني ،انظر ، السعدي : تاريخ السودان، ص٦.

(٦) المصدر السابق : ص ٧.

الأخير قضاء مدينة جني عام(٩٠٤هـ / ١٤٩٨م بعد عودته من الحج[١] ، وكان الفقيه القاضي محمد سانوا أول قاضٍ شرعي يفصل بين الناس في مدينة جني ، بعد ان كان الناس يترافعون بخصوماتهم وقضاياهم إلى خطيب الجامع الكبير فيسعى بينهم بالصلح[٢] .

كما تولى الفقيه القاضي الصالح محمود بغيغ فى عام(٩٥٩هـ/ ١٥٥١م) قضاء مدينة جني ، بعد وفاة القاضي عباس كب، وكان هذا في عهد الأسكيا إسحاق بن الأسكيا الحاج محمد الكبير[٣].

وكان القضاء في جني يمثل الازدهار والأمن والاستقرار وانتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ، وقد ذكر السعدي أشهر فقهاء المالكية الذين تولوا القضاء في مدينة جني في عهد دولة صنغى الإسلامية وفي مقدمتهم محمد سانوا الأول و القاضي محمد فودي ، القاضي كناجي و القاضي تنتاع و القاضي سنقم والقاضي عباس كب وقال عنه إنه من أهل جني وكان فقيها عالما جليلا فاضلا خيرا له قدم راسخة في السخاء و القاضي محمود بغيع ، القاضي عمر ترف والقاضي تلماكلس ، و القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف ، و القاضي مؤدب بكر توري ، وقال عنه إنه كلوي أصلاً من أولاد سلاطينها فزهد في السلطنة، و جليلا ونكرى الأصل تولى القضاء بعد وفاة القاضي مؤدب بكر توري وهو أخر قضاة دولة السودانيين[٤].

---

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص٥٩، السعدي : مصدر سابق ، ص١٨ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٨ .

(٣) الاسكيا إسحاق :"هو إسحاق بن الأسكيا الحاج محمد الكبير، وقد تولى العرش في(٩٤٦-٩٥٦هـ/ ١٥٣٩ -١٥٤٩م) انظر، السعدي : مصدر سابق ، ص ٩٥، ٩٦.

(٤) ولكن مع الاسف لم تذكر لنا كتب المصادر الكثير عن هؤلاء القضاة سوى أسمائهم فقط دون ذكر تواريخ أو شئ بالتفصيل عن حياتهم ، أنظر السعدي : مصدر سابق ،ص ٢٠،١٩.

ج ـ الخطابة والإمامة :

ظهرت خطة الخطابة و الإمامة منذ وقت مبكر في السودان الغربي مع بدايات انتشار الإسلام في تلك البلاد[١] . وقد حظي منصب الخطيب بالتقدير وعلو الشأن فكان لا يتولاه إلامن أتسع علمه و اطلاعه وكرم أخلاقه واتصف بلين العريكة وحسن السيرة ، والتقليل من الدنيا مع قلة الطمع فيها . والراجح أن بعض القضاة تولي منصب الخطابة فكان يلقب في أن واحد بلقب القاضي والخطيب[٢] .

وكانت وظيفة الخطيب هي أن يخطب في الناس واعظا ومرشدا أيام الجمع والأعياد ، وكانت مهمته تعتبر من المهام الأساسية في مجتمع السودان الغربي ، وكان الناس يحتكمون عنده ، وكان يقوم بمهمة القاضي في المدن الصغيرة [٣] .

---

(١) ضمت غانه منذ فجر تاريخها وحتى قبل أن تتحول حكومتها للإسلام ، نحو أثنى عشر مسجدا ،كما أن القسم الاسلامي من العاصمة كان ممتلئاً بالعلماء والفقهاء والأئمة ،أنظر إبراهيم على طرخان : إمبراطورية غانه الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٨٢.

(٢) يبدو أن منصب القاضي عرف باسم الخطيب أيضا ، وهذا يتضح عن الكلام عن الأسكيا إسحاق ومسألة ترشيحه محمود بغيع لمنصب القضاء ما نصه "ثم رجع أسكي إسحاق إلى كاغ ، وأدركه في الطريق نعى الخطيب أحمد ترف خطيب جني قبل وصله لكاغ ، وهو الذي ألفاه إسكى إسحاق هناك خطيبا ...فأمر بتقديم القاضي محمود بغيغ وأرسل أحد أعوانه من جيشه ليقدمه قاضيا أحب أم كره " ،أنظر محمود كعت ، الفتاش : ص٨٩، ويذكر السعدي أن الأسكيا داوود ولى محمد در مي خطيبا سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م، نفس المصدر ص٩٠، وهناك نص صريح لابن المختار يفيد بأن القاضي والخطيب شيئا واحدا وهو "...وكان أسكيا يوم عزم على الخروج لملاقاة جودار وقتالهم جمع أشياخ كاغ وأعيان جيشه والقاضي الخطيب وكبراء شهوده وسألهم عن الرأي والتدبير أنظر ، نفس المصدر ص١٤٩، ١٥٠.

(٣) سوزي أباظة : القضاء في صنغاي في عهد الأساكي (٨٩٨-٩٩٩هـ/ ١٤٩٣-١٥٩١م) ،مجلة المؤرخ المصري ، دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، قسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد ٢٨، يناير ٢٠٠٥م، ص ٣٥٩.

وقد تولي بعض القضاة منصب الخطابة بالإضافة إلي مهام أخرى ، فقد جمع القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف بين منصبي الخطابة والإمامة بالإضافة إلي القضاء فجمع المراتب الثلاث . ثم خرج للحج واستناب الخطيب إماماً على الخطابة والإمام يحيى على إمامة الجامع والقاضي مؤدب بكر تروري على القضاء ، وتوفى هنالك وبقي الثلاثة في أماكنهم[١] .

ومن أشهر من تولى خطة الخطابة الفقيه الواعظ أبو زيد محمود بن عمر الذي كان فقيها عالما فجمع بين الخطابة والتدريس وكان معرضا عن الدنيا بحيث لم يقبلها ولو في لحظة واحدة[٢].

وقد حظي الإمام والخطيب في عصر دولتي مالي وصُنغى برتبه ومكانه اجتماعية عالية فهو إمام المسجد ، كما كانت له ولداره حرمة تضاهى حرمة دار السلطان نفسه[٣] .

أما بالنسبة لخطة الإمامة فقد كان الإمام يتولي باتفاق أعيان المدينة أو البلدة، وتأتى موافقة القاضي على رأس هؤلاء[٤] وكان هناك بعض الأئمة يتولون منصب

---

(١) السعدي : تاريخ السودان ، ص١٩.

(٢) في عام (٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م) فلما صلى بالناس للظهر وجلس في مدرسته قال بالله بالله لتسمعن في هذا العام مالم تسمعوا بمثله قط ولترون فيه ما لم تروا قط ، أنظر المصدر السابق ، ص٥١، ٤٣.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ،ص ٦٧١، محمود كعت : مصدر سابق ، ص٩٩، ١١٩.

ESLIAs N . s : social history of Timbuktu,the role of muslim schoars and notables ١٤٠٠-١٩٠٠, p١١٣.

(٤) بعد وفاة الإمام أبو القاسم التواتى ، اتفق أهل الجامع الكبير على الفقيه الإما حمد والد نانا سرك ،فرفعوا أمره إلى أبى البركات القاضي الفقيه محمود فكمل عليه وصار أماما في الـ مع ، وبعد شهرين من ولايته جاء ابن أبى القاسم التواتى من توات فمشى أولئك الجماعة إلى الفق محمود وقالوا له : نريد أن تجعل لنا أبن الشيخ أماما فقال لهم بعد تولية الإمام أحمد أن لم تخرجوا عنى أسجنكم جميعا ، ثم رجع إلى توات ، وبعد سبعة أشهر توفى الإمام أحمد ،و اتفقوا على الفقيه الإمام سيد على الجزولى :وهو

القضاء[١].

وقد رفض بعض فقهاء المالكية تولي منصب الإمامة مثلما ما حدث مع أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتى المتوفى عام (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م)الذي طلب للإمامة فأبى ورفض[٢]، وكذلك ما حدث مع الفقيه أبى بكر بن أحمد بير بن الفقيه محمود الذي كان فاضلا خيرا تقيا صالحا ولذلك اتفق الصالحون على تقديمه للصلاة بالناس حين مرض الإمام القاضي العاقب فقدموه كرها فصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ثم خرج هاربا من البلد إلى قرية تنبهور فتوفى هناك[٣].

كما رفضها الفقيه عثمان بن الحسن بن الحاج التشيتى بعد أن عرضها عليه القاضي عمر ، وقال له لا تخرج من يدي حتى تدلني على من يستحقها ، فدله على الفقيه صديق بن محمد تعل[٤].

وكانت خطبة الجمعة تلقى باللغة العربية ، ثم تعقبها ترجمة باللغة المحلية يلقيها مساعد الإمام ، وشهد ابن بطوطة في السوق بمالي رجلا بيده رمح يقف ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب[١].

من الطوارق فولاة الإمامة القاضي محمود، أنظر السعدي : تاريخ السودان ،مصدر سابق ، ص٦٠، وكذلك ما حدث بعد وفاة الإمام عثمان بن الحسن التشيتى تنازع أهل الجامع الكبير في الفقيه كداد والفقيه الإمام أحمد بن الإمام صديق ، فأختار القاضي العاقب كداد فرتبه إماما في الجامع الكبير ومكث في الإمامة أحد عشر عاما ،وتوفى ٩٨٩هـ، أنظر البرتلى :فتح الشكور ، مصدر سابق ، ص١٠٨، وتولى بعده الإمام أحمد بن الإمام صديق الذي تولى الإمامة بأمر القاضي العاقب ومكث فيها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام ، وتوفى عام(١٠٠٥ هـ/ ١٥٩٦م) ، الاروانى :السعادة الأبدية ، ص٩٧.

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص٥٦.

(٢) أحمد بابا: نيل الابتهاج ص ١٣٧ ، السعدي : مصدر سابق ص٢٧ ،البرتلى :مصدر سابق ،ص٢٧.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص٣٥.

(٤) البرتلى : فتح الشكور ، ص ١٥٤.

وقد تعددت مهام الإمام، فقد جمع الفقيه الإمام القاضي كاتب موسى[٢] بين الإمامة والقضاء والتدريس ، كما كان كاتبا للسلطان منسا موسى وهو بذلك جمع بينهم وقد مكث في الإمامة أربعين سنة و لم يستنب ولو في صلاة واحده وهذا من أجل صحة البدن التي رزقه الله تعالى بها[٣] ، وكان هو آخر من تولى الإمامة من السودان ، وخلفه من بعده الفقيه عبد الله البلبالى .

وكذلك الإمام العاقب بن العاقب بن محمود تولي بعد موت أخيه القاضي محمد ، كلفه الأسكيا داوود بحمل القضاء فجمع بين المرتبتين الإمامة والقضاء إلى أن توفى[٤]. وتقلد الإمام الفقيه إبراهيم الزلفى خطة الإمامة وقراءة القرآن الكريم وتجويده ، كما عمل في التدريس[٥] .

وكان الفقيه الإمام أبو القاسم التواتى المتوفى عام (٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) إماماً ومدرساً في الجامع الكبير، وكان أسكيا الحاج محمد الكبير يصلي خلفه ،وكان يطلب

---

(١) أنظر ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص٦٦٩.

(٢) كاتب منسا موسى هو : الإمام سيدي أحمد ، كان رحمه الله عالماً عادلاً رحل من أرضه، إلى فاس للتعليم في دولة أهل ملى بأمر السلطان الحاج موسى فخلفه في الإمامة الفقيه عبد الله البلبالى ، أنظر :الاروانى :السعادة الأبدية ص ١٢٣.

(٣) وهو من أئمة المسجد الجامع الكبير في تنبكت المشهورين ، وذكر السعدي بأن جميع أئمة هذا الجامع من السودانيين وأن آخر الأئمة من السود الفقيه القاضي كاتب موسى ، وذكر أنه مكث في الإمامة أربعين سنة لم يستنب ولم يتخلف ولو في صلاة واحدة لما حباة الله من صحة وعافية بين سبها عندما سئل عن سبب تلك الصحة فقال أحسبها من ثلاثة أشياء ، مابت في الهواء ولو ليلة واحدة في الفصول الأربعة كلها ، و مابت ليلة واحدة إلا ودهنت جسمي وبعد الفجر استحممت بالماء المسخون ، وما خرجت لصلاة الصبح قط الإبعد فطور . ،أنظر السعدى : مصدر سابق ، ص٥٧ ، أنظر الأروانى :السعادة الأبدية ، ص ١٢٣ ،البرتلى : فتح الشكور، ص ١٥٨، ١٥٩ .،
ESLlAs . N . s : Social,p١٠٩.

(٤) السعدي : تاريخ السودان ،ص٤١.

(٥) الاروانى :السعادة الأبدية ،ص١٢٤.

دعاءه[١] ، وهو الذي ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة مع قراءة حزب واحد من العشرينيات ، وقد حبس أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد تابوتا فيه ستون جزءاً من المصحف في ذلك الجامع لأجل تلك الختمة[٢].

وقد تقلد خطة الإمامة من بعده في المسجد الكبير الفقيه الإمام أحمد والد نانا سرك، والذي لم يمكث في الإمامة طويلا حيث توفى بعد سبعة أشهر[٣] ، وكان قد تفقه على الإمام سيد على الجزولى وكان إماماً عالما عاملاً ولاه القاضي محمود بن عمر،وقد مكث في الإمامة ثمانية عشر عاما[٤] وبعد وفاته عرض القاضي محمود بن عمر الإمامة على نائب الإمام على الجزولى والذي كان يستنيبه متى عرض له العذر فرفض ، ورشح له الفقيه الإمام صديق محمد تعلى المتوفى عام (٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م) فصار إماماً في الجامع الكبير ومكث محمد تعلى في الإمامة نحو أربع وعشرين سنة[٥].

كما تولى الإمامة عثمان ابن الحسن ابن الحاج التشتى المتوفى عام (٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م)' وقد قبل الإمامة بعد امتناع حتى حلف له أبوه إن لم يقبلها ليسجننه[٦] ، وبعد وفاة الإمام عثمان تولى الإمامة بعد نزاع وحسم من القاضي العاقب الإمام محمد بن أبى بكر بن إكداد الفلاني المتوفى عام (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م)[٧] ، وتولى من بعد وفاة الإمام محمد بن أبى كداد الإمام أحمد بن الإمام صديق الذي تولى

---

(١) مسعود عمر محمد:تأثير الشمال إلا فريقي على الحياة الفكرية، مرجع سابق، ص١٤١.

(٢) السعدي : مصدر سابق ص٥٨، ٥٩.

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٩.

(٤) المصدر السابق : ص ٦١،٦٠، البرتلى :مصدر سابق ، ص١٩٧،١٩٦،:

ESLlAs . Alpha N . s social History of Timbuktu, , p١١٤.

(٥) السعدي : المصدر السابق ، ص ٦٢، البرتلى : مصدر سابق ص١٥٤، ١٥٥، الاروانى : مصدر سابق ، ص١٢٤.

(٦) البرتلى : مصدر سابق ، ص١٩٠ ، ١٩١، الأروانى : مصدر سابق ، ص١٢٤.

(٧) البرتلى : مصدر سابق ، ص١٠٨، الأروانى : مصدر سابق ، ص ٩٤.

الإمامة بأمر من القاضي العاقب ومكث فيها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام ، منها عشر سنين في دولة صُنغى .وهو آخر أئمة الجامع الكبير في دولتهم ، وخمس سنين في دولة السلطان الهاشمي أبى العباس المتوفى (١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦م)[١].

كما تولي الإمامة في مسجد سنكرى الكثير من الفقهاء ، وهم على الترتيب الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت[٢] الذي تولاها بإذن الفقيه حبيب ، ثم جاء من بعده الإمام أندغ محمد بن الفقيه مختار النحوي ابن خالة الفقيه محمود بن عمر والذي ظل إماماً لمدة عشرين عاما بعد وفاة أبي القاسم التواتى ، وظل في الإمامة حتى كبرت سنه إذ لم يعد قادراً علي إمامة المصلين فتركها لابن خاله الإمام أندغ محمد[٣].

ولما توفى أندغ محمد أمر الفقيه القاضي محمد بن الفقيه محمود فاعتذر متعللاً بسلس البول فكلفه بالبينة عليه فشهد له به الفقيه العاقب بن الفقيه العاقب بن الفقيه محمود فأقاله القاضي محمد وكلف شاهده بها فتولاها[٤] الإمام العاقب بن العاقب بن محمود الذي لم يستنب على الصلاة قط إلا في مرض موته حين أمر ابن أخيه الفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضي محمد أن يصلى بالناس فأبت أمه نانا بنت الحاج أحمد ، وبقى المسجد خاليا من صلاة الجماعة أياما[٥].

---

(١) مجهول : تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ص ١٧٩، البرتلى : مصدر سابق ، ص ٣٨، إلارواني : مصدر سابق ،ص٩٤.

(٢) المصدر السابق ،ص٦٣.

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٣،٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٩،.البرتلى : مصدر سابق ،ص١٠٧، إلارواني :مصدر سابق ،ص ١٣٢.

(٥) السعدي :مصدر سابق ، ص٦٣ .الاروانى : مصدر سابق ،ص١٣٢.

ثم تولى الإمامة في مسجد سنكرى الإمام عبد الرحمن بن الفقيه محمود وكان يتكلف وهو في غاية المرض ، ولم يستنب ولو مرة واحدة في صلاة ، وكان محافظا على الصلوات في وقتها[١] إلى أن ألقي القبض عليه محمود بن رزوقون ، فتولى من بعده محمد بن محمد كرى إلى أن توفى فصلى بالناس القاضي سيد أحمد مدة ، ثم تولاها ابنه الفقيه محمد[٢].

ومن أئمة المساجد أئمة مسجد سيدي يحيى في مدينة تنبكت[٣] ، وأول الأئمة في هذا المسجد هو الإمام سيدي يحيى التادلسي[٤] ، ثم جاء من بعده الإمام محمد بغيغ[٥] الذي عُرِضت عليه الإمامة في الجامع الكبير فرفض لتعلقه بإمامة مسجد سيدي يحيى[٦] .ثم تولى الإمامة الإمام صديق بن محمد تعل ، ومن بعده جاء الإمام محمود بن محمد الونكرى وظل في الإمامة حتى توفى عام(١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م)[٧].

---

(١) السعدي : نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر والصفحة ، الاروانى : مصدر سابق ، ص١٣٢.

(٣) عرف هذا المسجد باسم سيدي يحيى لأنه عندما قدم سيدي يحيى إلى تنبكت تلقاه محمد نض التي كانت ولايته على تنبكت بين عامي (٨٣٧ـ٨٧٦هـ/ ١٤٣٣ـ١٤٧١م) عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبني له مسجدا وجعله أماما فيه ،وبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح ، أنظر السعدي : مصدر سابق ،ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١؛الاروانى : مصدر سابق ،ص٨٢،٨١.

(٤) هو يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء بن أبى الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنه ت ٨٦٦هـ . قدم إلى تنبكت زمن ولاية محمد نض بين عامى (٨٣٧ـ٨٧٦هـ/ م) وتلقاه محمد نض عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبني له مسجدا وجعله أماما فيه وعرف هذا المسجد بمسجد سيدي يحيى ، وبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص٥٠.

(٥) هو القاضي :محمد بن القاضي محمود بن أبى بكر بغيغ (٩٣٠ـ١٠٠٢هـ/ ١٥٢٣ـ١٥٩٣م)، وكان من الفقهاء متعددي التخصص.أنظر، السعدي : مصدر السابق ، ص٤٤.

(٦) السعدي : مصدر سابق ، ص٦٣.

(٧) – البرتلى : مصدر سابق ، ص١٥٤.

أما الإمامة في جامع التواتى بمدينة تنبكت[١] فقد تولاها الإمام الفقيه محمود بن محمد الزغرانى التنبكتى المتوفى عام (١٠١١هـ/ ١٦٠٣م)[٢] ، ثم غلب عليه السعال فلازم بيته سنين تخلف فيها عن صلاة الجماعة والجمعة لذلك.

وهكذا كان لفقهاء المالكية مكانة ودور كبير بسبب توليهم بعض الخطط الدينية التي جعلتهم على مقربة من الأسر الحاكمة ، كما جعلتهم حلقة الوصل بين تلك الآسر والعامة في دولتي مالي و صنغى الإسلاميتين مما كان سبباً في علو مكانتهم الاجتماعية بين طبقات المجتمع المختلفة وفي بروز دورهم الكبير في هذا المجتمع من خلال شرائحه المختلفة ، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم من هذا البحث .

(١) جامع التواتى :تقول الرواية الشفهية إن الذي قام ببنائه هو محمد بن على التواتى ، الذي قدم من توات عام (٩٢٠هـ،١٥١٤م)مع جماعة من أهالى توات ، وقد حدثت خلافات دينية بينهم وبين بعض علماء تنبكت ، وترتب على ذلك بناء هؤلاء التواتيين ،مسجدا لهم يؤدون الصلاة فيه ، أنظر الأروانى :صدر سابق ، ص٩٧.

(٢) أنظر البرتلى ، مصدر سابق ، ص١١٠ ، الأروانى :مصدر سابق ، ص٩٧.